سلوى بكر

رواية قصيرة - قصص

مقام عطية

مقام عطية

مقام عطية

مقام عطية مقام عطية

مكتبة مدبولى

مقام عطية

رواية

الكتـــــاب: مقـــام عطيـــة

(رواية قصيرة وقصص)

تـــالــيــف: سلوى بكر

الطبـــعـــة: الثانية عام ٢٠٠٤

النـاشـــــر: مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ فاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

رقــم الإيــداع: ١٥٨٨٦/٢٠٠٣

الترقيم الدولى: ISBN 977-208-449-x

سلوى بكر

مقام عطية

رواية وقصص قصيرة

مكتبة مدبولى

روايــة قصيــرة

أم حوريس

فى أحد الأيام، دعيت إلى مكتب رئيس تحرير المجلة التى أعمل بها، على وجه السرعة، وعندما دخلت مكتبه الفخم، الذى يشغل أوسع حجرات المجلة، كان عنده مدير التحرير أيضاً، كان غاطساً فى كرسى جلدى داكن اللون ويحمل بيده الطريّة الصغيرة، التى طالما أثارت قرفى واشمئزازى، فنجان قهوة ويرتشف منه قليلاً، أخذ كلٌّ منهما يرحب بى ترحيباً غير عادى، أرابنى، حتى أنى شعرت بالخوف من مدير التحرير، عندما راح يضع يده فى جيبه ويبتسم، تصورت أنه سيخرج مسدساً ويطلق منه رصاصة فى اتجاهى. جلست على كرسى بجانب طاولة رئيس التحرير، وبعد مقدمات تقليدية، عرفت أنى مكلفة بمهمة صحفية خاصة تتعلق بمقام الست عطية.

لماذا أنا التى اختيرت للقيام بتلك المهمة، دون المائة والخمسين محرراً، الذين يعملون فى المجلة؟. لا أدرى. كان الأمر غريباً وغير مفهوم بالنسبة إلىَّ، فأنا لست على علاقة طيبة برئيس التحرير، أو مدير التحرير، أو حتى رئيس القسم الذى أعمل فيه؛ حتى يمكن اختيارى لعمل مثل هذا الموضوع الخطير جداً والخاص جداً كما قال لى كل من الرجلين، ثم إذا كان هذا الموضوع ضربة صحفية كما

يقولان، فلماذا يخصانى بها دون الآخرين من أتباعهم وصبيانهم الكثيرين فى المجلة. وما دعانى للاستغراب أكثر، هو أن الموضوعات التى من هذا النوع، يقوم بها أكثر من محرر، عادة، اثنان أو ثلاثة على الأقل، لكن، على رغم كل تساؤلاتى هذه، فقد قبلت القيام بتلك المهمة، وأنا سعيدة فعلا؛ لأنها لن تخلو من إثارة، نظراً إلى طبيعة الموضوع الغرائبية، حيث هناك المقام، وما أثير حوله من حكايات، هى أشبه بالأساطير والخرافات، لكن الإثارة الحقيقية، والتى تشدنى إلى القيام بذلك الموضوع، هى دخول مصلحة الآثار طرفا فيه، حيث قررت التنقيب حول المقام. كنت فخورة حقاً؛ لأنى سأقوم بمهمة خاصة وغريبة، لذلك قررت أن أتعامل معها، باعتبارها محكاً أساسياً، أختبر من خلاله مدى قدرتى وكفاءتى كصحفية صغيرة ناشئة.

التقيت الأشخاص أطراف الموضوع، وجمعت المادة وقمت بتحريرها، وخلال كل ذلك، كنت أطلع مدير التحرير على تحركاتى خطوة خطوة، وأتلقى منه ملاحظات على ما أنجزه من عمل، لم يكن أحد وقتها يعرف من العاملين فى المجلة، طبيعة ما أقوم به، بما فى ذلك رئيس القسم الذى أعمل فيه، وعندما أوشك الموضوع على الانتهاء، أعلنت المجلة على القراء خبر اعتزامها نشر تحقيق حول مقام الست عطية، بينما كنت أضع اللمسات الأخيرة فى التحقيق، بالحوار مع حبيبى وزوجى المرحوم على فهيم.

يصعب بالنسبة إلىَّ أن أكتب، عما جرى بعد ذلك، بالأحرى لم يعد ذلك مهماً، أو ربما أعتقد أنه لن يكون مهماً بالنسبة إلى أحد غيرى، لكن المهم هو أن الموضوع كله، جرى عدم نشره بعد ذلك

الإعلان، بل لم تنشر منه حتى حلقة واحدة، وعندما سألت مدير التحرير، أن يردّه لى، لأعيد قراءته، قال إنه فُقد منه وضاع ضمن موضوعات ومقالات أخرى ضاعت أيضاً، ثم طلب منى أن أنسى الموضوع تماماً، ولا أحدث به أى إنسان.

أأنسى موضوع مقام الست عطية؟. وقفت مبهوتة أسائل نفسى، وأنا أحملق مذهولة، فى ذلك الرجل مدير التحرير، صاحب الوجه الأنثوى المستدير، والنظرات اللئيمة القاسية، التى لا تخفيها ابتساماته الدائمة كلما تحدث. لم أستطع أن أقول شيئاً، بالأحرى، لم تكن هناك جدوى، من أية تساؤلات أو أية تعليقات، بخصوص هذا القرار، الذى كان بمثابة الستار الأخير. الذى تكشف عن آخر فصول حكاية مقام الست عطية، ومنذ تلك اللحظة، أتخذت أنا أيضاً قراراً، فأنا لن أتجاهل ذلك الموضوع أبداً، بل يمكن القول إنه لم يعد فى مقدورى تجاهله، بأية حال من الأحوال، فقد عشت، أعمل تحقيقاً حول كل ما أثير فى موضوع مقام الست عطية، شهوراً طويلة، أفكر به، ليل نهار، كما أنه كان الموضوع الذى فتّح عينيّ على حقائق غريبة، لم أكن أعرفها من قبل، وأخيراً، فإن مقام الست عطية، كان وراء أجمل قصة حب، عشتها لحظة فلحظة، وساعة فساعة، فلولا ذلك الموضوع، ما تعرفت على ذلك الرجل الكامل، الصامت صمت الآلهة، أوزوريس الطيب ـ كما كنت أناديه ـ الذى ولد خارج الزمان؛ ليبقى الضمير الإنسانى إلى الأبد، حياً لايموت.

لقد حزنت كثيراً، وتألمت بما يكفى، لكنى سعيدة الآن، ومطمئنة أيضا حيث بت أحمل فى أحشائى حوريس ابن أوزوريس، كما أنى تحررت من همّ كان يثقل كاهلى، ويعذب نفسى، فكل ما عرفته عن

مقام الست عطية لن يظل حبيس نفسى، وحبيس المجهول، فها أنا أنشره على الجميع، جميع أولئك الذين يهمهم الأمر، وأقول لهم كل ما عرفته عن مقام الست عطية، ما قاله الناس بالأحرى، وما قاله زوجى الأثرى على فهيم، وأولا وقبل كل شىء ما أعلنته مجلة الصباح بخصوص ذلك الموضوع، وسارعت بالتخلى عنه لسبب، أعرف أن الجميع سوف يعرفه بداهة عند الانتهاء من قراءة كل ما تحمله هذه الأوراق حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، أقدم أنا عزة يوسف، المحررة سابقاً بمجلة الصباح، ذلك الموضوع إلى كل من يهمه الأمر، فى ضوء التسجيلات الصوتية الحية التى حصلت عليها من الذين تحدثوا عن مقام الست عطية، أما شهادة الشاعر المجهول، فقد جاءتنى فى خطاب بريدى، على عنوان منزلى، بعد فترة قصيرة من نشر خبر اعتزام المجلة القيام بتحقيق صحفى حول مقام الست عطية، أما كيف عرف صاحب الرسالة، بأننى المنوطة بالقيام بذلك التحقيق من المجلة؟، ولماذا أرسل هذه الرسالة على عنوان منزلي؟، فلا أدرى السبب وراء ذلك حتى هذه اللحظة، وعموماً فقد حيرنى أمر هذه الرسالة كثيراً، لكنى فى النهاية توصلت إلى أمر بشأنها، فربما كانت كلماتها، للشاعر المعروف الأستاذ خليل يوسف، صاحب القصيدة الشهيرة «عطية فى القلب ياعين»، وللحقيقة فقد حاولت الاتصال به، والحديث معه، لكنه رفض رفضاً قاطعاً الالتقاء بى، أو الإدلاء بأى حديث صحفى.

أكاذيب الصباح

اهتمت مجلة الصباح، بما نشر فى الصحف، خلال الفترة الأخيرة، حول أن هيئة الآثار تنوى الحفر والتنقيب، فى منطقة مقام الست عطية بالقرافة الكبرى، وداخل المقام ذاته، وذلك للبحث عن كشف أثرى هام، لم يحدد تاريخه بعد.

لذلك قامت المجلة، بعمل تحقيق صحفى واسع حول الموضوع، الذى أثار اهتمام الرأى العام، والدوائر الأثرية فى العالم؛ حيث توقع المراقبون، وفقاً للأخبار المنشورة، أن يؤدى هذا الكشف إلى نتائج إيجابية جديدة، ربما قلبت النظريات التقليدية، المتعلقة بالتاريخ المصرى القديم رأساً على عقب، كما أن هذه النتائج، ربما حسمت، جميع وجهات النظر المتعلقة بأصل المصريين، ومنشئهم التاريخى، والجهة التى جاءوا منها على وجه التحديد إلى وادى النيل.

إن اهتمام المجلة بالموضوع، ذلك الاهتمام الشديد، جاء على ضوء ما قيل وتمحور حوله الاهتمام، بمحاولة الكشف الجديد، وهو أن ذلك الكشف سوف يجيب إجابة حاسمة على السؤال الدائم، الذى أشيع منذ زمن بعيد، سواء من قبل علماء الآثار الغربيين أو من قبل أولئك الذين لا يرون أية علاقة رابطة بين الماضى والحاضر، وهو

السؤال الذى يقول: هل يمت المصريون الحاليون، بأية صلة، للشعب الذى عاش فى وادى النيل منذ آلاف السنين، وحقق تلك الإنجازات الحضارية الكبرى؟.

لقد دفع ذلك التساؤل الكثيرين بعيداً، حيث الشطط الفكرى والخيال الكاذب، بل والافتراء المقصود فى كثير من الأحيان، فذهب بعض من هؤلاء إلى أن المصريين القدماء، جاؤوا من كوكب آخر تتقدم حضارته عن حضارة الأرض بآلاف السنين، وهبطوا وادى النيل؛ حيث أسسوا حضارة الفراعنة العظام، وقال آخرون إن بناة الأهرام، قد اندثروا وفنوا بمرور الوقت والأيام، فلا صلة للمصريين الآن بمن عاشوا على ضفاف النيل المجيد منذ خمسة آلاف عام، وإلاّ هل من المعقول أن تكون هناك أية صلة بين الذين استخدموا القيثارات الذهبية فى ترانيم المعابد، وبين أولئك الذين يغنون الآن السح الدح امبو؟. وهل يمكن أن تنتمى تلك النسوة البدينات اللواتى فى أحجام الفيلة. لنساء فرعون الجميلات، ذوات القدود المشوقة، المرتديات الغلالات الشفيفة، المبرزة لجمال الجسد السامي؟.

إن أية مقارنة بين الحاضر والماضى القديم، غير واردة، وفقاً لآراء أولئك المنظّرين لمثل هذه الأقاويل، كما أن العقل لا يستطيع احتمالها، لذلك فإن مجلة الصباح، انطلاقاً من كل حب لهذا الوطن، وحرص عليه، تتمنى أن يكون هذا الكشف الجديد، مخرساً لكل تخرصات تشكك فى أصول شعبنا، وأن يأتى بالبرهان الساطع على حقيقة انتمائه الحضارى.

غير أنه قبل البدء فى نشر هذا التحقيق الواسع، الذى سينشر تباعاً على حلقات؛ نظراً إلى اتساع مادته، وتشعب قضاياه، هناك

عدة ملاحظات لابد منها؛ حتى لا يحدث أدنى التباس عند القارئ، تتلخص فيما يلي:

- إن هناك تضارباً شديداً - حتى هذه اللحظة - حول شخصية الست عطية، وكراماتها الدينية، ومنشئها وأصلها.

- مقام الست عطية، هو مقام حديث الإنشاء نسبياً، كما أن التصريح الصادر من وزارة الداخلية بمولدها السنوى، لم يصدر إلا منذ بضع سنوات قريبة.

- هناك محضر شرطة، حرر منذ فترة، بسبب نبش تربتها قبل إقامة المقام، قيّد ضد مجهول، وقد قيل وقتها إن التربة نبشت أكثر من مرة.

- المجلة لم تتمكن من الحصول على صورة واحدة للست عطية خلال التحقيق، على رغم معرفة الست - قدس الله روحها - بأناس كثيرين، ومشاركتها كما قيل فى بعض المناسبات العامة. لكن الفنان على حسنى، قام بعمل بورتريه تخيلى للست عطية، بناء على طلب المجلة، ووفقاً للشهادات التى قدمت، وتتعلق بشخصيتها وتكوينها.

- رفض التربى، وخادم المقام، الكلام تماماً مع مندوب المجلة على رغم أن ذلك الرجل يعتبر من أهم حلقات الموضوع، لكن الصباح نجحت فى جمع بعض المعلومات المتعلقة به، والتى يمكن أن تلقى ضوءاً على دوره الحقيقى، كذلك رفضت هيئة الآثار الإدلاء ببيانات تفصيلية شافية حول المسألة، واكتفت بتصريح مشابه لما ورد بالخبر، سوف ننشره من باب توخىّ الأمانة والدقّة الصحفية.

الولد الوحيد.. متلقّى الخبر الحزين

والدتى ـ الله يرحمها ـ كانت سيدة محترمة، أحبتّ الناس وأخلصت لهم فأحبوها وقدروها، والله كرمّها فى موتها، مثلما كانت كريمة معطاء فى حياتها؛ وأنا لم أكن أعرف أنها توفيت إلا لحظة وصولى المطار، لأنهم قالوا لى فى التليفون، والدتك مريضة يا فؤاد، واحضر بسرعة لكنى شعرت أن الحالة حالة وفاة؛ لذلك حجزت على أول طيارة طالعة إلى مصر، ولحسن الحظ، وجدت مكاناً فى اليوم التالى للمكالمة.

وفى المطار بمجرد أن رأيت محمداً ابن عمى، وزوج أختى نادية بكيت على الفور، فالخبر كان فى العيون، وأنا كنت مصراً على الذهاب من المطار للترب مباشرة، ولم أستطع الانتظار؛ لأن أعصابى انهارت تماماً، حتى أنى بقيت أنهنه وأشهق كما الأطفال ولم أستطع التماسك، والحقيقة أن ضميرى كان يؤنبنى؛ لأنى لم أرها منذ أن غادرت البلد للعمل فى الخارج منذ حوالى أربع سنوات ولما وصلنا الترب، وفتح التربى الحوش، فوجئنا بأن التربة مفتوحة وكانت مفاجأة كبيرة للجميع، ونزلنا فوراً لنشوف ما جرى، وكان إحساسنا أنه لابد أن تكون هناك سرقة لجثة المرحومة؛ لأن هذا يحدث كثيراً

فى الفترة الأخيرة بسبب طلبة الطب، وعملية التشريح، لكن المفأجاة الأغرب، هى أن الجثة كانت سليمة تماماً، والكفن فى حالة طبيعية، ماعدا أنه مشرط كما جرت العادة لمنع سرقته، وكان التربى هو الذى لمح أولاً ذلك الشىء الذهبى الغريب، والذى كان يبدو أقرب من حيث الشكل، إلى هيئة زهرة اللوتس، وكانت له ساق طويلة ممتدة فى الأرض، والحقيقة أن ذلك كان المفاجأة الثانية بالنسبة إلينا، ووقفنا لفترة مبهورين؛ لأن ذلك الشىء كان منظره جميلاً إلى حد الخرافة، ولو كان معى صوّارة وقتها لصوّرته، وأنا أقول صوّارة ولا أقول كاميرا؛ لأن الكلمة الأولى عربية سليمة، وربما يكون من المفيد هنا التنويهْ بأننى عالم لغويات، أدَرِّسُ العربية فى جامعات أوروبية، ووصف ذلك الشىء الذى رأيناه مسألة صعبة جداً الآن، لكنه ترك شعوراً قوياً وغريباً فى نفسى. ولما تحرك التربى ناحيته ليمسكه أحدث صوتاً أشبه برفيف أجنحة طائر صغير، ثم تلاشى وتبدد تماماً، خصوصاً عندما حاول التربى الإمساك بالساق، وأخذ الرجل يتشهد ويحوقل، بينما أخذ ابن عمى يقرأ سورة الغاشية، وسورة الحاقة، وما شاهدته بأم عينى شاهده زوج أختى وابن عمى والتربى طبعاً؛ مما جعلنا نتوجس ونخاف جميعاً، ونغادر التربة فوراً، ثم نعيد غلقها، وأنا لا أعرف كيف تسرب خبر ما جرى بعد ذلك، حتى أصبح موضوعاً كبيراً على هذا النحو، والتربى لا يمكن أن يكون قد سرّب الخبر؛ لأنه اتفق معنا على ذلك احتراماً لحرمة الموتى، وسمعة الأسرة؛ ولأنه يمت لنا بصلة قرابة من بعيد، أما عن تفسيرى لهذه الواقعة وما جرى بعد ذلك، فأقول إن هناك أشياء كثيرة واردة فى هذا العالم، وأنا رجل عقلانى، عشت سنوات طويلة فى أوروبا،

وهناك تحدث ظواهر من هذا النوع أيضاً، وهم يهتمون بها جداً، ويتعاملون معها بجدية وعلمية شديدة، لكننا هنا بلد متخلف، والناس ليست على مستوى ثقافى مناسب فى الأغلب الأعم، لذلك حدث ما حدث، ورأيى أن أمى كانت امرأة عادية تماماً، لكنها كانت شديدة الطيبة، بل كانت طيبة إلى حد الاستفزاز، استفزازنا نحن أولادها، فهى كانت تفضل علينا الناس فى بعض الأحوال، وتقدم لهم الكثير، مما قد نحتاجه نحن، وعلى رغم أنها علمتنا وأحسنت تربيتنا، لكنها كانت تفعل أشياء كثيرة على حساب مصلحتنا وراحتنا، وأنا أذكر أن أخواتى البنات، كثيراً ما كن يسهرن ليالى طويلة قبل العيد الصغير، أو العيد الكبير لخياطة ملابس الجيران والمعارف دون مقابل، بل كان يحدث أن تشترى أمى أحياناً قماشاً من مصروف البيت، لتصنعه أخواتى ملابس لبعض الأطفال الفقراء واليتامى. عموماً أمى لم تكن طبيعية فى عطائها للناس، فالمسألة لم تكن مسألة كرم، لكنها كانت تفعل ذلك، على نحو يبدو معه أن ثمة شيئاً داخلياً يدفعها إلى فعل ذلك، ولنقل إنها كانت ميالة إلى النبالة أو الفروسيّة، وفى أوروبا الآن يدرسون مثل هذه الحالات، من خلال تتبع مدى نشاط الهرمونات فى الجسم البشرى، وأنا أرى أن أمى ربما عانت من عدم التوازن الهرمونى فى جسمها، فقد كانت تبدو حزينة مكتبئة، عندما لا يزورنا أحد، أولا يقيم عندنا بعض الضيوف لفترة من الوقت؛ فقد كان يحلولها استضافة بعض الأقارب والمعارف لأيام أو أسابيع، وفى بعض الأحيان، كانت الضيافة تمتد شهوراً طويلة، وللعلم فقد كان ذلك يحدث بصرف النظر عن وضعيَّة هؤلاء الناس، أو مستواهم الاجتماعى، فهى كانت تعامل من هم أدنى منها اجتماعياً، ومن هم

أعلى منها على النحو نفسه، وعلى أى حال، أستطيع القول إن أمى كانت شاذة اجتماعياً، لكنها لم تكن والعياذ بالله سفيهة، أو غير قادرة على امتلاك زمام نفسها، فهى كانت عادية فى بقية تصرفاتها، ونحن لم نملك شيئاً، والحمد لله، كان يمكن الخوف على تلفه أو ضياعه، وإلا ربما كان الشيطان قد أغوانا، وفعلنا مثلما يفعل بعض الأهل والأبناء، فيحجرون على ذويهم الذين يبددون ممتلكاتهم.

على مستوى العلاقة بنا، كانت حنونة طيبة، على رغم أنها لم تكن ربّة بيت بالمعنى التقليدى؛ فهى لم تكن تجيد طهى الطعام وترتيب البيت أو تنظيفه، وربما كان ذلك بسبب تربيتها المدللة فى الصغر، لكن أقول إنها كانت حريصة على تربيتنا وتعليمنا أفضل ما يكون، حتى صرنا نتبوأ مناصب ومراكز اجتماعية مرموقة، وهى لم تفرق بين ولد وبنت فى التربية والتعليم، فأعطت لنا حرية التصرف وحرية السلوك، وقد كان ذلك يكلفها الكثير فى بعض الأحيان، ويعرضها للانتقاد، خصوصاً عندما كانت أخواتى يعدن متأخرات فى الليل من السينما أو خلافه، لكن ذلك لم يقلل من حب واحترام الناس لها. بصراحة أنا لا أجد تفسيراً مقبولاً لما حدث، ومسألة الكنز هذه مسألة مشكوك فيها بالأصل، وأنا لا يمكن أن أشك فى التربى؛ لأنه لو كان قد فتح التربة بعد ذلك، لكان الأمر قد انكشف، فنحن عاودنا الذهاب فى اليوم التالى للحادث، ثم فى الأخمسة الثلاثة التى سبقت الأربعين، بل فى اليوم الأربعين ذاته، أما عند فتح المقبرة للمرة الثانية، فالتربى هو الذى اتصل بالبوليس ليثبت الواقعة؛ لأنه دخل الحوش مبكراً فى الصباح ليسقى الصبّار الموجود فيه، وعندما وجد التربة مفتوحة خاف وجرى، وأبلغ البوليس؛ لأنه

كما قال لنا بعد ذلك، خشى أن يحدث شىء، قبل أن نأتى؛ لأن إبلاغنا كان يستلزم كثيراً من الوقت، بسبب المواصلات، وعندما عاد عسكرى البوليس من القسم، لم ينزلا إلى القبر مرة واحدة ـ كما قال ـ واكتفيا بسد المقبرة جيداً، وإغلاق الحوش، ولما عرفنا ذلك أنا وأخواتى تضايقت فى البداية، لأنه كان من المفروض، أن يشوف المقبرة من الداخل، لكن عمى الشيخ سعد جارنا، هو الذى أقنعنا بصحة عدم فتح المقبرة مرة أخرى، وطبعاً ليس لأحد من أفراد أسرتنا مصلحة فيما حدث، بالعكس أقول، إننا نعانى الآن من مسألة تحويل المدفن إلى مزار بعدما بنى الناس فوقه المقام، وعملوا ما عملوه من مولد وخلافه، ومنعاً للشبهات، فقد رفضت رفضا مطلقاً، باعتبارى ابنها الوحيد، أن يقام صندوق للنذور، أو أى شىء من هذا القبيل، وتكفى الشموع عند الزيارة، وقراءة الفاتحة، وقد رأيت أمى عدة مرات فى المنام بعد وفاتها، فى عدة أحلام عادية، ولو كانت رواية حلم الشيخ سعد جارنا صحيحة، فالأولى أن تأتينى أنا، أو واحدة من أخواتى البنات، فى الحلم، وهنا أحب أن أشير، إلى أن أمى، كانت من حيث التدين، امرأة عادية، تصلى وتصوم، وتؤدى الفرض وتزكى، ولم تحج، لأنها فضّلت، أن تبيّض الشقّة بالزيت، وتشد كراسى الصالون، وتغيّر تنجيدها، لما تجمّع معها قرشان، بعد سنوات من وفاة والدى؛ لأن أختى صفاء، كانت على وشك الزواج، ونحن لم يكن بيننا أحد متزمتاً من الناحية الدينية، ثم إن أمى لم تكن لها أية كرامات فى حياة عينها، حسب معرفتى بها، أما حكاية طيران نعشها فى الجنازة، فأنا لم أكن حاضراً ساعتها كما قلت، وأشك فى صحتها، وهذه أقوال العوام، الميالين إلى التهويل، وأقول

إننى عارضت بشدة فى مسألة المقام عند البداية، لكنى رضخت أمام أهالى الحى وسكان الترب، والشيخ سعد جارنا، وبصراحة، كان السبب الأساسى لموافقتى، يرجع لوضعى الوظيفى أولاً وأخيراً، فمركزى حساس كما هو معروف، وما تردد عن كونى شيوعياً فى السابق، كان من الممكن أن يثار مرة أخرى لو رفضت؛ لأن بعض الناس لم ينس ذلك، منذ أن قُبض عليّ، فى إحدى المظاهرات فى مطلع شبابى، وأقول ذلك بصراحة؛ حتى يمكن تفهم الموقف كله.

علاقتها بأبى مسألة لا يمكننى الخوض فيها، بسبب كونى أصغر أخواتى، وتفصلنى عن أختى الكبرى عشرون سنة بالضبط، وعندما توفى والدى، كنت صغيراً، وأنا لا أتذكره جيداً، لكن حسبما عرفت عندما كبرت وبدأت أعى الأشياء والناس بعد ذلك، هو أن أمى وأبى لم يكونا على وفاق، وأن أبى كان يسميها الأستاذ عطية، لكن يوم وفاته كان أسوأ يوم فى حياتى، منذ ذلك الوقت انقطعت أمى عن إرضاعى؛ لأن لبنها جفّ، وهى كانت تنوى إرضاعى حتى أبلغ السادسة من عمرى، باعتبارى الذكر الوحيد لها بعد أربع عشرة ولادة تبقّى منها ثمانى بنات وأنا.

هناك حادثة صغيرة، ربما تلقى الضوء قليلاً على شخصية أمى، وهى واحدة من حوادث كانت كثيراً ما تحدث فى بيتنا، وأنا أتذكرها حتى الآن؛ لأنها أثرت فى نفسى كثيراً، ففى إحدى المرات كنت أجلس للمذاكرة فى وجود أستاذ لى هو جارنا الطبيب الذى كان على وشك التخرج من الجامعة، كانت إحدى أخواتى شبه مخطوبة لهذا الشاب، فجأة، وجدت أمى، تصفعها على وجهها، لا لشىء إلا لأنها صفعت بدورها خادماً صغيراً فى مثل عمرى؛ لأنه فتح دشّ الماء على شعرها

المكوى دون أن يقصد لمّا كانت منحنية لغسل يديها المبللتين بالصابون، وطلبت منه فتح حنفية البانيو؛ لأن حنفية الحوض لا تشتغل، وقد قالت لها أمى غاضبة: لو كان أخوك لما فعلت ذلك. والحقيقة أن أمى كانت تعامل الخدم على نحو غريب جداً، فهذا الولد ظل يتردد عليها حتى بعد أن كبر وأصبح موظفاً فى الحكومة، وأمى هى التى أدخلته المدرسة بنفسها، وكانت تشترى له الثياب، وتجعله لا يقوم بعمله كخادم؛ حتى يتمكن من المذاكرة، ولا يضيع وقته فى الأعمال المنزلية، وعلى رغم كل ذلك، فقد كانت تعطى لأمه راتباً فى مطلع كل شهر لقاء وجوده عندنا.

أعمال الحفر لن تتم فى قبر أمى، فاحترام مشاعر الناس ومراعاتها واجب، قبل كل شىء، ولكن الآثار يمكن أن تحفر حول القبر، أو بالقرب منه، وذلك فى حال وجود دلائل تشير إلى وجود ما يستحق الكشف عنه فى هذه المنطقة. وأنا أحذر المسئولين من استفزاز الناس، وإن لم يأخذوا بكلامى، فما عليهم إلا أن يحضروا إلى مكان المقام، ويشاهدوا بأنفسهم ما يفعله الناس فى مولد الست عطية، لقد صار لمقام عطية صيت كبير، وأحبابها صاروا يأتون حتى من أسوان والسودان، وقد طالب بعض أقربائنا فى البلد، بنقل رفاتها إلى هناك؛ حتى لا يتكبد أهل البلد مشقة السفر والحضور، إلى هنا كل عام، لكنى رفضت بشدة، لعلمى أن وراء ذلك مآرب وأطماعاً، فالبعض يريد استغلال الفرصة، وتنشيط أحواله بدرجة أو بأخرى، مستغلا مناسبة المولد، كما أنه لا يجب إقلاق راحة الميت، فما بالك إذا كان ذلك المتوفى هو أمى.

الشيخ سعد

ربنا وحده أعلم لماذا أتكلم الآن، فلقد كنت أفضل السكوت؛ لأن هذه الأمور لا تصح اللجاجة فيها، والمسألة هى أن الإنسان لو أراد أن يؤمن فلابد أنه يؤمن، أما ذلك الذى يريد برهاناً يمسكه بيده، ويراه بعينيه، ويذوقه بلسانه، فلن يؤمن حتى تقوم القيامة، فالله عز وجل يقول: «فطرة الله التى فطر الناس عليها». أتكلم، لا لأثبت أو أنفى، أو أقنع أو أشفى غليل فَضُول مُراقب، يعنى البحث عن ملح وطرف وغرائب، فأنا ضد اجتماع الدين والدنيا، وإلا كنت قد خضت فى سلك المشايخ، وبحثت عن أرقى المناصب، عبر الاشتغال بدين الدنيا، لكن تكفينى من الحياة تجارتى بالنهار، التى لا تشغلنى عن الحبيب فى الليل، غير أن ما حدث قد حدث، وعطية هانم أنعم الله عليها، فأصبحت ولية من أوليائه، ورؤيتى لها صادقة، ولو كره المتأولون، ومن كرم الله أن أحبابها، كانوا من الكثرة؛ بحيث أقيم المقام بجهودهم، ولم يحل الحول، إلا وكان مزاراً ومناراً للهدى واليقين. وقبل كل شىء، أقول لك، إنى أعرف الست عطية أباً عن جد، فجدها هو الذى ربى أبى، لما مات أبوه، وأبوها كان نداً لأخى فى صباه وشبابه، ولما أعطاه الكريم عطية بعد أن مات لامرأته سبعة

ذكور، أسماها بذلك الاسم؛ تيمناً بعطاء الله، وامتثالا لإرادته بعد أن أظلمت الدنيا فى وجهه، وهو صابر على الأمر، فلم يطلق امرأته، ولم يتزوج عليها بأخرى، وكانت عطية التى وُلِدَتْ بعدها - كما كانت تحكي أمي - طفلة غير عادية الحجم والنمو، وربما كان ذلك بسبب أنها أُرضعت لبن حمار، فور ولادتها، بناء على وصية، امرأة غجرية ضارية ودع، كانت قد تنبأت بمولدها والله أعلم.

ونشأت عطية، عفية معافاة، تسبق عمرها كثيراً، قيل إنها كانت تحمل خروفاً زنة عشرين رطلاً - دون أن تكل أو تمل - حمل الأم لرضيعها، وأذكر أنها عندما كنا نلعب ونحن صغار، «كلوا بامية» أو «كيك على العالى» كانت عطية تجرى وتسبق الجميع، وتقفز على نحو لا يستطيعه من هم أكبر منها سناً، وقد قيل إنها كانت طفلة أكولاً، لا تكتفى بالرضاع، وقد دخلت ديوان النساء قبل الأوان، حتى أنها لما كانت فى العاشرة، أصبحت تبدو وكأنها فى الرابعة عشرة من العمر، وقد تربت عطية تربية بنات الملوك؛ فدللت وغنجت، وكانت لا تفارق أباها الذى هام بها، خصوصاً لصباحة وجهها، ورشاقة فرعها، ولما كان زمن هوجة سعد، صار يصطحبها معه، ويتركها تشق صفوف المشاركين فى الاجتماعات، حتى تصل إلى منصّة الخطابة، فتقبلّ الزعماء وتحييهم، ثم تغنى، وكانت قد تعلمت فى مدارس الإفرنج؛ مما جعلها تستطيع غناء أغنيات من نوع «أنا اجيبتى.. اجيبتى»، وغيرها؛ لأن هذه المؤتمرات، كان يحضرها أجانب أيضاً، مؤيدون للمسألة المصرية، وعندئذ، كان الدم يفور فى العروق، ويلتهب حماس الناس، وهم يشاهدون صبيّة صغيرة تتغنى بحب الوطن وحريته، كما كانت تدور بالعرائض مع أبيها، للتوقيع على

مطالب الأمة، أما ما أقوله عنى، فعطية كانت الحب الذى تفتح عليه صباى وشبابى، والقلب الذى هز قلبى بعطفه وحنانه، لكنها لم تكن لى أبدا، فقد كنت صغيراً عنها، وسرعان ما زوّجها أبوها المرحوم لأبى أولادها، فَزُفَّتْ إليه زفافاً عامراً، ربما لم تشهده هذه المدينة من قبل ويكفى القول إن الأفراح ظلت أربعين يوماً دونما انقطاع، يذبح فى كل ليلة من لياليها الشىء الفلانى من الخراف والبط والإوز والحمام، ويوزع على الرائح والغادى أصناف الحلوى من فالوذج وأرز باللبن، وأم على، ولقمة القاضى، وأصابع زينب، وشراب الورد المحلى بالسُّكر، وكان ضمن جهازها مدق من الذهب وآخر من الفضة، ولم يدخل دولابها صنف قماش إلا الحرير الخالص، وكأن أباها لا يصدق أنه يشهد زواج ولد حيّ خرج من صلبه، فباع من أملاكه وهو الميسور الشىء الكثير لأجل هذا الزواج، فأنفق على الراقصات والطبالين والزمارين، وجالبى الورود والرياحين، بهذه المناسبة، ما يقارب ثمن بيت من أملاكه، وفى ليلة زفافها، دُقت الكؤوسات، وطِيف بها شوارع المدينة، وهى راكبة على فرس أشهب جميل والخدم بين يديها يقفون بالشاش والقماش، بينما يتقدم موكبها لاعبو النار والحواة وأصحاب الخيال والسماجات، على عادة أهل الزمن القديم، حتى دخلت بيت زوجها الذى خرجت منه يوم وفاتها. غير أن أبا عطية، سرعان ما مات بعد ذلك بقليل، وقبل أن ترزق عطية بابنها الأول، الذى مات بعد ذلك أيضاً، وقد قيل وقتها إن الرجل قُهَر، وطبَّ ساكتاً، عندما علم بخبر غرق أرضه التى كان يزرعها دخاناً، وذلك فى زمن الفيضان، فقد كان يستأجر هذه الأرض وكانت جزيرة كبيرة فى النيل من أم الملك، حيث كانت تدخل فى زمام أملاكها،

وعلى أى حال، فهو لم يترك لعطية بعد وفاته إلا الستر وراحة البال.

أحكى كل هذه الحكايات، ليعرف الجميع، أننا نعرف عن عطية أكثر مما قد يعرفه الأخ عن أخته؛ فقد تآخينا وتجاورنا فى السكن لسنوات طويلة، حتى ظن الناس أننا أخوان خرجنا من رحم واحد، وياليتنى لم أعش حتى اليوم الذى تموت فيه، وأمشى فى جنازتها وأواريها التراب بيدى.

ومالا يعرفه الناس، وهذا سر أذيعه لأول مرة، أن عطية قبل وفاتها بوقت قصير، جاءت إلى جماعتنا، وكانت الأخيرة وقتها جالسة تنتظر سماع آذان العصر لتصلى، ونحن عادة نترك باب بيتنا مفتوحاً، طيلة النهار؛ لأن الداخل إليه لا يكون غريباً عنا، وجماعتنا حركتها ثقيلة بعض الشىء بسبب وجع المفاصل، وقد كانت عطية مضطربة جداً كما قالت المرأة - جماعتنا يعني - ولونها مخطوف، وترتجف، على رغم أن الدنيا صيف، والحرَّ كابس فى كل ناحية، ثم إنها قالت لجماعتنا بعد أن هدأت قليلاً إنها كانت واقفة تسقى الريحان فى جنينة بيتها، عندما لمحت فى الشارع، سائلاً عجوزاً، ينادى على حسنة لله، فَلَفَّت من الجنينة للمطبخ، وحطّت لحماً فى رغيف، وخرجت لتلحقه وتناوله رزقه، لكنها وجدته قد اختفى تماماً، من الشارع، كما لو كانت الأرض قد انشقت وبلعته، ثم إنها دوّرت عليه فى كل ناحية، لكنها لم تجده أبداً، فتوجست، لأنه تهيأ لها أن الرجل، كان يلبس أبيض فى أبيض، كما أن شارعنا سدّ، ومستحيل أن يكون مرّ منه لشارع آخر، كما أنه لم يكن من المعقول، أن يجتاز الشارع عائدا؛ لأن شارعنا طويل بعض الشىء، وفى هذه الحالة، كان لابد أن تراه، حتى لو وصل نهاية الشارع، وبينما عطية وجماعتنا

تتحدثان، أذّن المؤذّن لصلاة العصر، فقالت عطية إنها ستذهب لتصلى فوراً، حتى لا يفسد وضوؤها، والدنيا شتاء، وقد كانت حسرة البول تمسكها كثيرا بسبب مرض السكّر، فذهبت على أن تعود بعد صلاة العصر؛ لتشرب القهوة مع الجماعة، وتتفرج على المسلسل بالتلفزيون، لكن السرّ الإلهى، كان قد طلع، وقد عرفنا ذلك، لما سمعنا سوسن ابنتها تصرخ وتقول: إلحقونى يا ناس وكنت وقتها على وشك أن أمدد جسمى على السرير، وأغطس فى النوم، فجريت بسرعة حافياً، من شدة ريكتى، ورحت لبيتهم، وهو ملاصق لبيتنا تماماً، فوجدت المرحومة ساجدة على سجّادة الصلاة، وكانت قد سجدت وغابت فى السجود، فلاحظت ذلك ابنتها التى كانت تجلس قريباً منها على الكنبة، فجرت تنادى على الناس. والحمد لله، موتة ربنا ينولها للجميع، فالساعة كانت ساعة عصر، ووجهها كان ناحية القبلة، ثم إنها كانت طاهرة بسبب الوضوء، ونيتها سليمة؛ لأنها كانت تنوى الصلاة.

ولما كان المنام الذى رأيتها فيه، تعاتبنى بنظراتها دون أن تتكلم، وهى ترتدى ثوباً أبيض، وكانت تبدو فيه جميلة جداً، فأجرى نحوها، أريد الكلام معها، فتدخل مسرعة من باب قديم مطرّز بنقوش عربيّة، فقد بدأت أنشغل بذلك وأفكر فيه، وكنت فى البداية أفزع من نومى، وأقوم وأقرأ الفاتحة على روحها، وقد تكرر هذا الحلم ثلاث مرات، وفى المرة الأخيرة، التى رأيتها فيها، كان الباب الذى دخلت منه قد تجدد، وأصبح فى لون أخضر بديع، ثم إنها دخلت وأغلقته، بعد أن لوّحت بيدها وتبسّمت، وفى صباح تلك الليلة تصادف أننا ذهبنا إلى الترب، فلاحظت بمجرد وصولى باب الحوش

الذى دفنت فيه، وكان هو الباب نفسه الذى شاهدته فى المنامات والنقوش فيه، وهى النقوش العربية نفسها التى لفتت نظرى فى الأحلام، فانتفض جسدى، ورجف قلبى رجفة خلت معها أن روحى لابد طالعة منى، وشعرت كأنى سأسقط على الأرض، حتى أن ابنى لاحظ ذلك فسندنى ظناً منه أننى تعثرت فى حجر عتبة الحوش، لكنى تماسكت وكتمت الأمر، حتى استشرت أولى الأمر، وبعض الصالحين، فقالوا جميعاً: وجب المقام.

وبهذه المناسبة أقول إننى لا أعرف شيئاً عن حكاية الزهرة الذهبية ولا أجد تفسيراً لها، وهذه أشياء لا يجب الخوض فيها، ولكن لكل وليّ كراماته، وإذا كان عهد النبوة والرسل قد انتهى، بانتهاء رسالة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، إلاّ أن أولياء الله كانوا وسيكونون فى كل زمان ومكان؛ لأنهم من ملح الأرض، «ولله فى خلقه شؤون»، وهو وحده العليم.

بقيت مسألة أخيرة، وهى أن الحفر مستحيل أن يحصل. أقول ذلك ولا أخشى شيئاً؛ لأن كلّ ما يقال عن وجود آثار من عدمه فى القبر كلام فارغ، وهذا يستهدف تقليب الناس التى لا يمكن أن تسكت لو حصل الحفر. ثم لماذا الجرى الآن وراء الأباطيل؟، وما جدوى الجرى وراء هذه الأشياء؟، هل يريدون أن يعرفوا سرّ الكون، وكنه الحياة من خلال قبر عطية هانم؟. والله حرام، أقول حرام واتقوا الله فى أفعالكم، كما ألفت نظر البعض إلى أن العبث بالمحرمات وعلى رأسها حرمة الموتى، لابد أن ينقلب على أصحابه؛ فنابش القبر ملعون، ومقلق راحة الميت ملعون، وكفانا تشويشاً وبلبلةً.

الجـارة تقـول:

عطية هانم، جارتى وأختى وحبيبتى. لقد بكيت يوم وفاتها أكثر مما بكيت يوم وفاة أمى ذاتها، فهى المروءة والإنسانية والرحمة، كانت أفضالها على الجميع صغاراً وكباراً، لم تدخل بيتاً، أبداً، إلا وفى يدها ما يفرح العيّل، وعلى لسانها ما يطيّب خاطر الكبير، يذكرها القريب والبعيد بكل خير، أما عن علاقتى بها فأقول إننا سكنا فى البيت المجاور لبيتها منذ ثلاثين سنة، وكنت وقتها عروساً جديدة، يمنعنى زوجى من الأخذ والعطاء مع الجيران؛ لأننا غرباء ولا نعرف أحداً فى هذا الحى، الذى سكناه بسبب قربه من شغل زوجى، وفى إحدى الليالى، وبينما هو غائب فى وردية الليل، وأنا وحيدة بالبيت مع ابنتى الرضيعة كوثر، أخذت البنت تبكى بشدة وتصرخ، وكنت وقتها عيّلة، لا دراية لى بالخَلَفِ والعيال، فأخذتُ أعطى البنتَ الينسون والكراوية، ثم حاولت أن أنومها مرة على بطنها، ومرة على ظهرها، وهى تبكى وتصرخ الصرخة التى تجعل قلبى يتقطع، حتى أنى تصوّرت أنها ستموت فعلا، فأخذتُ أبكى وأنوح بعد أن أعيتنى الحيل؛ لأن لبن صدرى كان قليلاً ولا يكفى لشبع العيّلة، وبينما أنا فى هذه الحال، إذ بباب البيت يدق فجأة، فشعرت بالخوف، ولم أرد،

لكن ربنا ألهمنى بعد قليل، فقمت وسألت عن الطارق فى هذه الساعة الغريبة من الليل، فجاءنى صوتها هى، عطية هانم، وكانت تستفسر عن سبب بكاء البنت، ففتحت لها وأدخلتها، وأنا أطلب من الله مسامحتى؛ لأنى عصيت أمر زوجى، ولما عَرفَتْ رحمها الله، أن حليبى شح، وأن الكمّون واليانسون لم يشبعا العيّلة، أخذتها منى وأرضعتها، وكانت وقتها ترضع ابنتها سوسن، ومن هنا بدأت علاقتنا كجيران، والتى كانت فى الحقيقة أكثر من علاقة جيران.

والمرحومة كانت أماً بالرضاع لعدد كبير من أبناء هذا الحيّ، منهم على عباس المسئول الكبير فى الحكومة، الذى انتقل من حينًا، طبعاً، بمجرد حصوله على منصبه المعروف، وهى بالنسبة إلى الرضاع، كانت غير طبيعية فى هذا الجانب، فكانت تستطيع إرضاع طفلين إلى جانب طفلها الوليد، إرضاعاً مشبعاً حتى لحظة الفطام، وكان صدرها ضخماً بطريقة واضحة، على رغم أنها حتى وقت وفاتها لم تكن سمينة أبداً، وربما فسر ذلك كون الأطفال يرتاحون عليه، وينعسون بمجرد أن تحملهم عطية هانم وتأخذ فى هدهدتهم، وكانت تقول عن حليبها الكثير إنه خير ونعمة رزقت بها، فلماذا لا تُنعم بها على من يحتاجونها، والطريف أنها كانت تشكو من آلام فى ثديها، إذا ظل بهما الحليب، لذلك كانت تدور على أهالى الحى وتسأل عن الوالدة منهم، لحظة ولادتها؛ لتطعم صغارهم بحليبها.

وبسبب حكاية الرضاع هذه، كانت لها دالة على العديد من ذوى المكانة والنفوذ فى البلد، والذين أصلهم من هذا الحى، فكان يكفى أن ترسل صاحب الحاجة والطلب إلى المسئول فى مكتبه ليقول له: أمك عطية، تسلم عليك، وأنا قادم من ناحيتها؛ فيقوم الرجل بقضاء

حاجته، وهو لا يملك إلا التنفيذ، والامتثال لطلبها؛ خوفاً من أن تلتقيه يوماً، وتعاتبه عتاب الأم لابنها، ثم إن بعضهم كان يقبّل يدها أمام الناس ولا يخشى فى ذلك لومة لائم، وقد شاهدت بنفسى، أحد الضباط الكبار بالجيش، ولاداعى لذكر اسمه، وكان يعيش فى حيِّنا منذ سنوات، يقف أمام عطية هانم وقفة التلميذ الفاشل أمام مدرِّسه، بعد حرب سبع وستين، وهى الله يرحمها تُبَوِّخُهُ وتعاتبه وتقول له: والنبى حرام تروح البلد فى شربة ماء بسببكم، الناس تقول خطوة لقدام، وأنتم خليتم عاليها واطيها، «خربتوها وقعدتم على تلها» تقول ذلك والدموع نازلة من عينيها، والرجل واقف قدامها مطأطئاً، ولم يفتح حنكه بكلمة واحدة.

وفى أيام حرب بور سعيد، وقفت عطية بجانب سرور اليهودى والذى يقع بيته فى آخر الحى، وكان الشبان وقتها، ينوون قتله، وإشعال النار فى دكان العطارة الذى يملكه، وقالت لهم: إن سروراً لم يفعل شيئاً، وما تفعلونه حرام. ولولا ذلك لكان سرور وأهله قد أصبحوا الآن فى خبر كان، غير أنها لم تكن تحب سروراً وتقول: لا يمكن لمؤمن أن يأمن على نفسه من يهودى أبداً، كما كانت تقرف جداً من أكل أو شرب أى شىء عنده فى البيت.

وأقول عن عطية (هانم)، لأن أباها كان حاصلاً على الأفندية بشكل رسمى من الحكومة، لذلك فاسمها فى شهادة الميلاد عطية هانم، وكان أبوها ميسوراً، لكن عطية عاشت حياة أفقر الفقراء، فلم أرها يوماً ترتدى الذهب، على رغم كثرته لديها، وكانت توزع أثوابها الحريرية على بنات الحى وقت زواجهن، وقد باعت معظم ذهبها فى مناسبات لا تتعلق بحاجتها إلى ذلك فقط، وسوف أحكى لك عن

مسألة تتعلق بى شخصياً، فزوجى ـ رحمه الله ـ كان يحدث له عجز فى الخــزينة، بين وقت وثان؛ لأنه كـان صــرافـاً بكوبانيــة النور والله أعلم بسـبب حـدوث ذلك العـجـز، لكنه والعـيـاذ بالله لم يدخل منه قرش واحد لبيتنا، وفى مرة من المرات أصبح انكشاف أمره وشيكاً ونحن لا نملك حتى ما نبيعه لنغطى الفضيحة، الآتية فى السكّة، والتى كانت لابد أن تنتهى بفصل زوجى من شغله وسجنه، وهنا قصدت عطية هانم وأفضيت لها بسرّى وهمّى، فما كان منها إلا أن أعطتنى من مصاغها زوج ثعابين، وحلّفتنى أن أرجع لها فلوسها؛ لما تتيسر معى، وتفرج كربتنا، فقلت لها: زوج كثير، كفاية واحدة، وقد بعت الثعبان، لكن قضاء الله كان أسرع من أن نرد لها قيمته، فقد توفى زوجى بعد ذلك بشهور مستوراً، وأخذتنى صعوبات الدنيا، والصرف على العيال، ولم يتيسر لى رد فلوس عطية هانم أبداً، حتى هذه اللحظة.

كل ماحدث لا أستطيع تفسيره، لكن الأولياء أصحاب كرامات بلا شك، وربما كانت كراماتهم مستورة، وأنا أتذكر أن عطية هانم كانت فى يديها بركة، فلما كان يتصادف أن تأتى إلى وتساعدنى فى الخبيز، كان العجين يرمى من يدها كثيراً، وكلما كانت تمد يديها للماجور لتقّرص لى العجين أقراصاً، أقوم بفردها على المطرحة وأطوحها فى الفرن، كان العجين لا ينتهى حتى أنى أملّ وأزهق من قعدتى عند بيت النار؛ لأن العرق يجرى مجارى فى جسمى، وعندما تلاحظ هى ذلك تقول: الحمد الله، آخر قرص، ثم تخلّص العجين عن كفها، وتعمل به عروسة تغرزها بقشة أو أى حاجة ثانية وتقول: فى عين العدو، فى عين من شاف وما صلى

على جمال النبى، فى عين الوسواس الخناس، ثم ترمى العروس فى جوف النار.

حكاية الحفر، كثيرة قوى، وأنا أقول عيب، والله عيب أن يفكر الإنسان فى حاجة لا تجوز أبداً، صحيح أن الأرواح تفارق الجسد بعد الموت، لكن للرميم حرمته، وكفاية، الكفر فى كل ناحية بالبلد، والدنيا، التى قلت بركتها بسببه، يعنى الرغيف صار بالشىء الفلانى.. الرغيف الحاف ياناس.. ماذا نريد بعد ذلك؟.

نظـــرية الكبيرة

أمى لم تكن امرأة عادية أبداً، أقول ذلك لأنى أعرفها مثلما لم يكن يعرفها أحد فى الدنيا. لم تكن العلاقة بيننا، مجرد رابطة أم بابنتها، فقد كنا أقرب لأختين، وربما كان الشبه الشديد بيننا أحد أسباب ذلك، وربما تقارب عمرينا أيضا، فأنا أصغر منها بخمس عشرة سنة لا غير، وكنت صديقتها الصدوقة التى تهيم بها حباً، وتقاسمها الفرح والهم، وتحفظ لها أدق أسرار حياتها دون حرج أو خوف، ولا أخفى سراً الآن، إذا قلت إن السبب فى عدم زواجى حتى هذه اللحظة، كان موقف أمى، فعندما قررت أن أتزوج لا لشىء إلا لأتخلص من نظرات الناس إلى كعانس، وذلك منذ حوالى عشر سنوات، حينما التقيت بأحد زملائى، وكان أرملَ ذا شخصية وقوز آسرة، شعرت أن أمى تضايقت لما فاتحتها فى الأمر. أجل تضايقت لأنى سأتزوج، لم تقل لى شيئاً يتعلق بالرجل، لكنها أقنعتنى فى النهاية بأنها سوف تكون الخطوة المجنونة التى ستجهز على مستقبلى، كباحثة فى العلوم الطبيعية، تطمح فى تحقيق شىء ما على صعيد العلم، وكانت هى التى دفعتنى لترشيح نفسى قبل ذلك فى الانتخابات مرتين، وأنا أظن أنها كانت امرأة سياسية، على رغم أنها لم تشتغل بالسياسة طيلة حياتها أبداً، اللهم إلا إذا اعتبرنا

حضورها مرة أو مرتين، لمؤتمرات سياسية مع أبيها أيام زمان، عندما كانت طفلة عملاً سياسياً، وحتى بعد الزواج، عندما دفعها أبى إلى الاشتراك فى جمعيات نسوية، تابعة للحزب الذى ينتمى إليه، ذهبت مرة واحدة فقط لاجتماع نسائى، عادت بعدها تستشيط غضباً من تصرفات النساء، اللواتى أخذت أمى تقلدهن فى حركاتهن المفتعلة، وقالت لى فيما بعد إن ما استفزها بالأساس، أن رئيسة الجمعية، وكانت سيدة مجتمع شهيرة، أخذت تغير من درجات صوتها وطريقة كلامها عندما جاء للاجتماع بعض الرجال، وإن المجتمعات أخذن يبتسمن دون مناسبة ويسوين شعورهن وهندامهن، وعادت وقتها لتقول لأبى، إنهن لسن أكثر من مجموعة نسوان لا شغل ولا مشغل لهن، وربما لهذا السبب أطلق عليها أبى منذ ذلك الوقت «الأستاذ عطية»، وربما بسبب سلوكها بصفة عامة أيضاً، وخصوصاً فيما يتعلق بحياتها الخاصة معه، فعلى رغم أن أمى كانت تتمتع بوجه جميل، وقوام رائع، إلا أنها لم توجه أنوثتها أبداً تجاه رغبات أبى، حتى أننى عندما كبرت وصرت أفهم الأمور بعض الشىء، كنت أستغرب من أين تأتى أمى بأخواتى؟!، وأنا لا أذكر أنها نامت فى سرير أبى ليلة واحدة، لكن على رغم ذلك، فقد كنت ألاحظ أن أبى كان يحبها، كما كانت هى تحبه وتحترمه، لكن كلاً منهما على طريقته الخاصة، فهى لم تعترض على نزواته القليلة التى شاهدت بعضها بأم عينى، عدة مرات فى بيتنا مع نساء قريبات لنا، كما أنه فشل فى أن يجعلها امرأة تحت طلبه، كمعظم زوجات عصرها. بل حتى عصرنا أيضاً، فقد كانت شخصية قوية قادرة على فرض نفسها ببساطة وسلاسة شديدة، وأنا ضد فكرة أخى عنها، والتى تقول بأن هناك خللاً فى هورموناتها، فبساطتها وأسلوب

تعاملها مع الناس، هو الذى خلق منها أشهر شخصية فى الحى، يعرفها الصغير والكبير، الفقير والغنى، المسلم والمسيحى وحتى اليهودى؛ وأنا أقول اليهودى، لأن أمى نجحت فى إقامة صلات جيدة مع الأسرة اليهودية الوحيدة التى كانت تعيش بحينا، ولم تهاجر.

وكانت أمى تتبنى فلسفة بسيطة جداً فى تعاملها مع الناس، ربما لم تدركها أبداً، وهى أنها كانت تعطى للناس الشىء نفسه الذى تريده منهم، وكانت البادئة بالعطاء دوماً، لكنها كانت تأخذ الكثير من الناس، دون أن تشعرهم بذلك، وبعد أن مات أبى وأصبح لا مورد لنا إلا معاشه الضئيل، نجحت أمى فى الخروج بمركب أسرتنا الكبيرة إلى بر الأمان، لا بسبب تدبيرها شؤون البيت، وحسن تصريفها لذلك الدخل المحدود، ولكن بسب فلسفتها المذكورة، فعندما دخلتُ الجامعة، وكان التعليم وقتها باهظ التكلفة، كانت أمى تأتى بنفسها إلى مدير الكلية، وتقابله دون أن أدرى، وتطلب منه إعفائى من المصروفات بعد مناقشة طويلة معه. يتخللها كثير من الأكاذيب من ناحيتها، والحقيقة أنها كانت راوية ممتعة لحكايات وحوادث لا تخلو من مبالغة، وأحياناً لم تحدث بالأصل، كأن تقول إنها من نسل ملوك مصر الفراعين الذين أسلموا سراً قبل دخول الإسلام مصر بسنوات بعيدة، كما كانت تقول إن لديها كتاباً بذلك، مكتوباً بلغة الفراعنة، وأنا لم أره بالطبع، وأذكر أنها قالت لرئيس المستخدمين بإحدى الشركات إن أختى "سوسن" هى ابنة بواب عمارة قريبة من بيتنا وإنها تعول إخوتها الصغار بعد أن دهست الرجل سيارة، فرق الرئيس لحالها وعينّها فوراً، وغضبت سوسن، عندما عرفت الحكاية بعد ذلك من زملائها ورفضت الذهاب للعمل. والغريب أن أمى كانت تمارس الابتزاز النفسى أحياناً، فعن طريق علاقاتها

الواسعة بالناس، كان يمكن أن تطلق إشاعة فى الحى، عن فلان الثرى الذى يقتسم مع زوجته بيضة واحدة على الإفطار كل صباح، وأنه يخزن الأموال فى قدور السمن الفارغة، وأنه لا يستحم إلا مرة واحدة فى العام، وبالطبع لم يكن الرجل بخيلاً إلى هذا الحد، لكنه لم يخرج الزكاة، أو كان يرفض التصدق ببعض ماله، وكثير من الناس كانوا يتقون لسان أمى، بأفعال تبرزهم على نحو طيب، وبصراحة كانت أمى جمعية خيرية متنقلة، فنظام يومها كان غريباً بعض الشىء، فهى تصحو مبكرة، وتضع لنا الفطور، وبمجرد أن يخرج أبى إلى العمل ونحن إلى المدارس، كانت تخرج. وهذا لا يتطلب منها أكثر من ارتداء فستان أسود وحذاء بكعب منخفض، ثم تلفُّ شعرها بمنديل أسود، وما إن تصير على باب البيت، إلا ويبدأ نشاطها بتحية الجيران والسؤال عن أحوالهم، ويكفى أن تكون هناك امرأة فى شُبَّاكٍ تنشر الغسيل، أو شاب خارج إلى عمله، حتى تبدأ أمى الحوار معه، وكانت من خلال ذلك تستطيع معرفة أخبار الحى كله، من خلال جولة صباحية قصيرة، تحتسى خلالها عدة فناجين من القهوة.

وكان هذا يعنى أيضا حل بعض المشاكل للناس. امرأة تريد بضعة جنيهات، تحضرها لها أمي - أثناء جولتها - من أخرى على سبيل السلف. فتاة فى حاجة إلى فستان جميل، ترتديه عندما تدخل بصينية الشاى على عريس تقدم لها. وهذا الشىء كانت تفعله لأجلنا أيضاً، كما كانت تحصل على خدمات مشابهة باسمنا لحساب آخرين، وقد ساهمت أمى فى إتمام زيجات كثيرة، وكذلك حالات طلاق؛ بسبب نقلها الأخبار واطلاعها على حياة الناس اليومية، وعلى رغم ذلك فقد كانت محبوبة؛ لأن المحصلة النهائية لسلوكها كانت فى صالحها، كانت تمتلك

طاقة نفسية وجسدية هائلة، فهى تجهز طعاماً لأسرة كبيرة فى وقت قصير جداً، تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، وعلى الرغم من ذلك تستيقظ مبكرة، لإعداد الفطور. ولم تكن تستغرب أحوال الناس أبداً مهما كانت، فهى رحيمة تنسى الإساءة وتغفر للناس إساءاتهم، وربما كان ذلك لأنها كانت تسىء إليهم أحياناً. أذكر أنها التقت فى إحدى المرات بفتاة شابة، أفهمتها أنها فقيرة، وحيدة وبلا مأوى أو عائل، فخافت أمى على البنت من الانحراف، وجاءت بها لتبقى معنا فى البيت، بعد أن أفهمت الجيران والناس، أنها ابنة والدنا من امرأة أخرى، اكتشفت أنه كان قد تزوجها قبل وفاته، وقد ظلت الفتاة معنا، تعاملها أمى مثلما تعاملنا تماماً، وترتدى ملابسنا، كما كانت تأخذ مصروفاً، وتساعد أمى فى الأعمال المنزلية، بينما نقوم نحن بتعليمها القراءة والكتابة فى الوقت الذى كنا نعانى فيه من ضائقة مالية حقيقية؛ بسبب أننا كنا آنذاك مازلنا نتعلم، وبعد شهرين جمعت هذه الفتاة جميع ملابسنا وأشيائنا، بما فى ذلك الملابس المنشورة على الحبال، وهربت، بينما كانت أمى تقوم بجولتها الصباحية، وتختلق تفاصيل جديدة عن قصة ابنة زوجها المسكينة، التى أصبحت يتيمة تماماً بعد وفاة أمها أيضاً، وبعد ذلك بسنوات التقتها أمى فى الشارع صدفة فعاتبتها ووبختها، بعد أن أخذتها بالأحضان والقبلات، وظلت البنت تبكى وتقول إنها كانت فى عصابة، وكانت العصابة تهددها بالقتل إذا لم تمتثل لأوامرها، وإنها أفهمتهم وقتها أنه لا يوجد شىء فى منزلنا يستحق السرقة، لكنهم لم يصدقوها، كما أنها كانت تتمنى أن تبقى معنا؛ لأنها كانت تعشق أخى، وكانت تخطط للزواج منه.

وأنا أسوق هذه الحكاية لأبرز جانباً من شخصية أمى الغريبة، فقد

كانت مغامرة محبة للحياة على نحو غريب، تدمن قزقزة اللب وقراءة الصحف والمجلات، وتتابع مباريات كرة القدم، وتحتفظ بكلب أو كلبين على الأقل فى البيت، أما عن عدد القطط، فحدث ولا حرج، وكذلك، عصافير وسلاحف، وفى إحدى المرات ابتاعت نسناساً من قرداتى يطوف به للتسول، مقابل حلق من الذهب، لكنه هرب بعد ذلك، فى ضوء خطة بينه وبين صاحبه فيما يبدو؛ لأنها رأت الرجل بصحبة قرده فى مولد السيد زينب، وقد صافحها القرد بعد أن تعرف عليها بنفسه، وتجاهل الرجل الموضوع. لقد اكتأبتُ عندما ذهبت إلى قبرها ووجدت المقام الذى أقاموه لها، فهذا كله كلام فارغ؛ لأن أمى امرأة أسئ فهمها، وحالت الظروف دون صيرورتها الطبيعية. فأنا أظن أنها أصيبت بصدمه نفسية من نوع خاص، منذ لحظة زواجها، فحياتها ونشأتها الأولى كانت تتنافى مع حياتها بعد الزواج، ومطالبه التقليدية؛ فقد تربت على الشجاعة والمواجهة، والتصرف الحر، وأبوها كان ينشئها كما لو كانت ولداً ذكراً؛ فكان يأخذها معه فى مجالس الرجال، والاجتماعات العامة، ويقال إنها بدأت فى تدخين النرجيلة منذ أن كانت فى الثانية عشرة، وكنت أراها، تتبادل أنفاسها مع أبى ساعة العصارى بسعادة طاغية، منذ أن وعيت الحياة. وقد قالت لى مرة إن أول صدمة تلقتها فى حياتها، يوم سألها أبى، بعد يومين من زفافهما، أن تقوم لتنام، وكانت وقتها تلعب الورق مع خادمة شابة، قدمها لها أبوها ضمن جهاز عرسها. إننى أسوق كل هذا لأبيّن أن أمى كانت إنسانة لديها إمكانات كبيرة...ولكن.

العاشق.... المعشوق

عشقتها عشق البحر لمحاراته الدفينة، والطير لشعاع شمس شتوية لم تشرق بعد، كانت معى فى كل لحظة من لحظات عمرى. سبعون عاماً، يسرى حبّها فى دمى، رائحتها فى فراشى عند المساء، صورتها فى مرآتى كل صباح، حلم المنام الجميل، وحلم اليقظة الأليم، أحادثها دون أن تكون معى، أمزج ذاتها بذاتى فأخاصمها وأهجرها وأصالحها.. وحيداً بينى وبين نفسى. وربما يعرف الآن الذين يتساءلون: لماذا لم أتزوج؟. إننى كنت انتظرها انتظارى المستحيل، والزمن يزحف فيهزمنا ولا نهزمه. لم تكن على دينى، فكان مستحيلا أن أكون زوجاً لها، لكنها كانت لى منذ أن كان الحب، ومنذ أن تعرفت عليها مرة فى بيت صديق لوالدها ووالدى، أصابتنا سهام العشق، ولم تزل ترمينى بغياب الأمل فى رؤيتها حتى الممات، عطية التفاحة، عطية الخميلة، هديل الحمامات فى القلب، رقص الفراشات للنار، فلّة دائمة على وسادتى، قطرة ندى صباحية على نافذتى، موج بحرى فى دمى، هى التى وهبتنى وجه العاشق، وأنامل المشتاق، وروح الشعر السحرية، صاحبة النشيد المجنون، أغنيات السحاب والمطر.

أرجوكم.. ارفعوا أيديكم عن حبيبتى واتركوها ترقد رقدتها

الأخيرة بسلام، فما المجد الآن؟. أقبر وشاهد أم مقام؟. إن التراب يحضنها حضناً أزلياً يحسده القلب عليه، وقلّة وسادتى الحبيبة، تتوسد حصيّات الأرض الآن، فياريح اشهدى، ويابحر فلتلطم أنواء الأرض بأمواجك عنيفاً.. عنيفاً، ويانجمات المسافر، اسكبى دموعك ضياءً من نار، ولتغرب الشمس قبل أن تشرق؛ فحبيبتى صارت تتوسد حصيّات الأرض.

كانت عطية حقاً فى زمن ندر فيه العطاء، كانت لا تبحث عن الحقيقة، لأنها، هى ذاتها. بالفطرة العبقرية عَرَفَتْ أن الخير خير، والحق حق، والجمال جمال.

فى المرة الوحيدة التى التقت شفتانا فيها بتلك القبلة القمرية النادرة، قالت لى، والنهر يسمع، والنسيم يخلط أنفاسها بأنفاسى اختلاط النور بالنار: أنت الإنسان الوحيد فى العالم الذى أتمنى أن أجود له بروحى ونفسى، ولكن ليتنى أستطيع.

لكنها استطاعت أن تكون بقربى دوماً، تمنحنى لحظات الابتهاج بذكراها وهى غائبة. ولحظة أن طار طائرها عرفت قبل أن تأتى ابنتها إلى أختى العزيزة وتخبرها خبرها، فوقتها، كنت أسير فى الطريق، وفجأة تمثلت صورتها أمام ناظرى بوضوح، فاختلّت خطواتى، ووقعت دون سبب مقبول، فلا حجر أمامى، ولا ساتر يعوقنى عن السير، فعرفت أنها لابد أن تكون قد ذهبت فى رحلتها الأخيرة، وعندما قمت من عثرتى، لأنظر فى ساعتى، كان الوقت نفسه، الذى عرفت فيما بعد أنها ذهبت فيه.

أعرفها معرفتى لغاية الشجر من ثمراته، ولهجرة الطير لخلاصه، كانت حزينة إلى حد الفرح، فرحة إلى حد الموت، وكانت

المواسيـة المؤاسيـة، الأسيـانـة، المفراجـة، الطـروب، تعشق عـشق الناس لحـيـواتهم؛ هـرباً من عـشق مـلائكى نادر، تحـجـبـه أحـوال الدنيـا، وشـروطها المشـروطة، التى تفصل وتصل، وتقـارب وتبـاعد، عـاصفـة بأحوال المحبة والهوى، وأقانيم العشق والغرام، وربما لا أذيع سـراً، إذا قلت إن أشعارى وأناشيدى، كتبتها فى رحاب عشقى المجيد لعطية، فأما عن نبش القبـر بحثاً عن أثر أو خلافه، فأقول إن القبـر رمـز.. رمـز لقلب عاش فأعطى فأخذ، فرقد، ولن أقول: حرام وحـلال، فهذه بديهـيـة لا داعى لقـولهـا، لكنى أتوجـه بالحـديث إلى أولى الأمـر المسـئولين عن الآثار، فـأسـألهم: هل فـتـشـوا فى كل مكان من أرض مصـر عن أمجاد الماضى، ولم يتبق لهم إلا موضع قـبـر عطيـة؟، وهل أنتم مبـادرون إلى صون ما تم كشفه من آثار عظيـمـة بالفعل، ولم يبق لكم إلا البحث عن أثر جديد؟، وفرضـاً أنكم وجدتم شيئاً جديداً فى قبـر المرحومـة، فماذا أنتم فاعلون به؟، هل ستقدمونه هدايا ـ كما فعل البـعض ـ لكل من هبَّ ودبَّ من أصدقـائكم الأجـانب؟، هل سـتـتركونه مُعَرَّضاً للسرقة والنهب، يعرض فى متاحف الدنيا كلها، موزعاً على البلدان؟.

كل مـا أقوله: اتقّوا الله فى أحوالكم، واعلموا أن حيلكم مكشوفة، فـمـا أنتم إلا راغبـون فى إزالة قـبـور هذه المنطقـة لغـرض فى نفس يعقوب، تتكسبون من ورائه، وتعيثون به فى الأرض فساداً.

أم حسين . وليّه غلبانة

بكاها طوب الأرض لما ماتت، ويمكن، جنازتها كانت أكبر من جنازة الملك لما مات، كانت أميرة بنت أمراء، تمشورنى هنا وهناك، وتحط الفلوس فى يدى من وقت لوقت، ولا من شاف ولا من درى؛ لأنها كانت عارفة أنى غلبانة، ولا حولى رجل أو عيل يجرى على ويرعانى، والشيخ سعد كان عزيزاً عليها، وكذلك الست نوسة زوجته، وكانوا مع بعض خوش بوش، وما تقوله الولية صاحبة العمارة عنها كذب فى كذب، وبناتها أحسن البنات، والكبيرة تقدم لها خُطّاب من كل ناحية، لكنها فضلت ترفض، وأنا كنت عارفة، أن المرحومة كانت مخاوية جان؛ فهى كانت تربى قططاً كثيرة، وتكلمهم ويسمعون كلامها، ومرة شفتها بعينى، تضرب قطاً أسود كبيراً - كان عندها منذ مدة - على رأسه ضرباً خفيفاً؛ لأنه كان يمسك بين أسنانه عصفوراً صَادَهُ من الجنينة، ولما قالت له: اتركه وإلا والنبى أجيب أجلك، فكّه على طول، كما لو أن القط يفهم الكلمة، وطار العصفور، لكنها فضلت توضب القط بالكلام، وتقوله له: خير ربنا كثير، والأكل مرمى تحت رجليك هنا وهنا، وعندك فيران فى كل ناحية، يعنى حَبَكَتْ العصفور؟، والقط بقى يتمسّح برجليها ويموء بصوت ضعيف، كله ذل ورجاء، كمن يتأسف على غلط صدر منه.

الشيخ سعد كان عارف كل شيء عنها، وأنا ذات نفسى صدّقت لما قال كرامات؛ لأنى شفت بعينى أفعالاً منها، كما قلت، ثم إنها توسطت لى عند المدام مديرة الملجأ؛ لأعيش فيه لأن رجلى صارت ثقيلة فى الحركة حبتين، لكنى وجدت عيشة الملجأ تزهّق، ومعاملتهم قاسية، فرجعت إليها مرة ثانية، وقلت لها أنا محتاجة لأن أكون هنا فى الخارطة، لأنى تعودت عليها، وعلى الناس فيها، فتوسّطت لى عند صاحب العمارة وأعطانى مكاناً تحت السلم لأبيت فيه كل ليلة، ولقمة من هنا، ولقمة من هنا الأمور ماشية، ثم إنها جعلت لى جُعلاً كل شهر، وكذلك جعلت أصحاب المعروف يفعلون فعلها والحمد لله.

يوم جنازتها كنت خفيفة، خفة الريشة، وفى رجلى كانت قوة ولا قوة بغل، حتى أننى وصلت مع الجنازة حتى الجامع، وأنا التى وقفت على غسلها، وكان جسمها نظيفاً كالفلّ، ووجهها طالع منه النور، وعلى شفتيها بسمة حلوة، ومن يراها كان يظن أنها نائمة، وغاطسة فى حلم جميل، وأنا أخذت هدومها بركة، وطلبت من عيالها سلحفاة، كانت بالبيت عندهم، يمكن من حوالى ثلاثين سنة، وهى عندى حتى الآن.

الحكومة كل سنة والثانية تعمل هيصة، ولما كنت فى البلد زمان، كانت تفضل تقول آثار، آثار، لكن الناس زمان كانت ناصحة، وكل نَفَر شاف حاجة هنا واللا، يكفى على الخبر ماجور، والتربى، يتقطع لسانه، يمكن هو المبلِّغ للحكومة، والحكومة لو أخذت الأرض، مفروض تبنى عليها بيوتاً، ولاداعى لصرف الفلوس على الكلام الفارغ.

زوجة صاحب العمارة بالحَى...
وعمـــارات أخرى

على رغم أن مـا سـأقـولـه، لا يصح قـولـه على إنسـان تـوفى؛ لأن الموتى لا تجوز عليهم إلاّ الرحمـة، إّلا أن كـلامى لابد منه؛ لأنه شـهـادة، فيجب أن أكون أمينة فيها، فرأيى أن عطية لم تكن امرأة محترمة أبداً، فسلوكهـا كـان سـوقيـاً وبلدياً جداً، كانت تصـاحب من هبّ ودبّ، وتدخل بيتها الصعاليك والشـراشيح، وتسـامرهم وتجاريهم فى الكلام، ولم تكن ربة بيت بأى حـال من الأحـوال، فـهى تطبخ طبـيـخـاً لا يمكن أن يأكله ابن آدم، ولاحتى الحيوان، وبيتها كان وسخاً دائماً، من كثرة دخـول وخـروج النـاس منـه؛ ولا أظن أنـهـا مـشطت شـعـرهـا أبداً، وكـانت ترتدى الأسـود، وتضع على رأسـهـا منـديلاً أسود، لا من بـاب الحشـمـة والوقـار، ولا الحزن على زوجـهـا كمـا كـانت تدّعى، لكن لأن الأسـود لون لا تظهر عليه الوساخة، ولايمكن تمييـز تفصيلته، فكل الهدوم السوداء تتشـابه، وقـد قطعت عـلاقتى بهـا تمامـاً ـ على رغم أنى كنت حـريصـة جداً مـعـهـا أثنـاء اتصـال هذه العـلاقـة، منـذ أن حـاولت ابنتهـا الوسطى إغـواء ابنى الضابط، فبناتها مثلها يجدن الكلام الحلو والابتسـام فيـقـع الشبّان فى حبال شباكهن، لكن أمرهـن سرعـان ما ينكشـف، فـهن ـ فى الأغلب ـ على صـورة أمّـهنّ، مـتـلافـات مـثلهـا، لا يـخـجلن من فـقـر أو

شحاذة، فابنتها الكبرى على سبيل المثال، ذهبت إلى الجامعة فى معظم الأيام بهدوم ابنتى التى كانت تناهزها العمر، والغريب أن عطية لم تكن فى الأصل فقيرة، لكنها كانت مبددة متلافة، فعند زواجها كانت تمتلك أربعاً وعشرين مرتبة سرير، وعشرين لحافاً من القطن، وكان ثمنهم يساوى الشىء الفلاني - حتى فى أيام الرخص - ومع ذلك لا يوجد لحاف واحد منهم فى بيتها الآن؛ لأنها كانت تسلّف الناس كل شىء من بيتها حتى مراتب السرير، وكانت لما ينزل على جارتها ضيوف من البلد، تعطيها مراتب وملاحف، وحتى أطباق الصينى والشوك والسكاكين، وطبعاً كان مستحيلاً أن أقبل زواج ابنى، من بنت لها؛ فهن يستقبلن الشبان فى البيت، ويتحدثن إليهم، بل كن يذهبن معهم ـ فى بعض الأحيان ـ إلى السينما، وهل هذا شىء يمكن قبوله، وهل يتصوره أحد؟!، وابنتها الكبرى كانت تذهب فى رحلات مع الجامعة، وتغيب فيها أسبوعاً وأسبوعين، والله يعلم أين كانت فعلاً؟. أما عطية نفسها، فسلوكها لابد أن يكون مستقيماً، فهى امرأة لا تحسب فى النساء بالأصل، حتى ينظر إليها الرجال، وزوجها نفسه كان يتهكم عليها بذلك أمامنا، وأمام الناس كلهم، أما كون زوجى كان يهزر معها، بعض الأحيان، ويدعوها لفنجان قهوة؛ فذلك لا يعنى أى شىء، فزوجى، رجل يفهم الدنيا كما يجب، وكان يفعل ذلك معها لأنها عارفة أخبار الحىّ كله، والأخبار عندها أولاً بأول دائماً، وطبعا كان يسلّفها؛ من وقت لوقت؛ لأنه كان يعذرها ويقول: غلبانة وحملها ثقيل.

حكاية المقام كلام فارغ طبعاً، ويقف وراءها جارها الشيخ سعد؛ فهو رجل مهووس ومريب أيضاً، وهو يستغل تأثيره على الناس

كـخطيب فى جـامع المنطقـة، وبصــراحــة أقــول إنه لابدّ من وجــود مستفيدين من وراء ذلك الموضوع، وهذه أشياء تحدث وتكثر فى البلد الآن، ومنذ فترة قريبة، وأبسط شىء يمكن قوله إنها لم تكن محجّبة بالمعنى الصحيح للتحجّب، وكذا بناتها أبعد ما يكنّ عنه، ثم هل من المعقـول أن تظهـر الكرامـات فـجـأة؟.. والله أنا مستغربة من ذلك ومستغربة أكثر من اهتمام الصحافة بأشياء من هذا النوع. لذلك ألفت نظركم إلى ما يحدث فى البلد الآن، وفجور السكان، واستهتارهم بأصحاب العمارات، وأتمنى أن تكتب الصحف عن ذلك، فحتى فلوس المياه يرفضون دفعها، ناهيك عن أن الإيجارات ذاتها منخفضة، وبهذه المناسبة أذكر أن عطية أرسلت فى إحدى المرات خطاب شكر باسم سكان الحى لرئيس جمهورية راحل، كان قد خفّض الإيجارات منذ سنوات بعيدة عموماً. وراء كل سلوك مصلحة، ولتفتش الحكومة عن أصحاب المصلحة فى موضوع عطية، وقصدى واضح من هذا الكلام، ولا يخفى عن الذين يفهمون هذه الأمور أكثر منى.

طالب جامعى، ضمن من شالوا

خرجنا بالنعش من البيت، ومشينا به حتى الجامع لأداء صلاة الميت والمسافة كانت حوالى كليومترين اثنين، الدنيا كانت شتاء، لكن الجو وقتها كان معقولاً، والشمس طالعة، وفجأة وبينما نحن سائرون، دون أية مقدمات، غيم الجو وهطل المطر. وساعتها بدأت حاجة غريبة تحصل، فالنعش بدأ يخف وزنه ويفلت من أيدينا، وينطلق بأقصى سرعة إلى الجامع، وبقينا نتشبث به ونحاول تثبيته ونحن نجرى مع سرعته حتى لا يفلت منا ويقع فى الوحل، وقد شعر بهذه المسألة نفسها كل الذين حملوه معى، وكانوا خمسة أشخاص غيرى، وأنا كنت غير مصدق فى البداية، وكنت أظن أننى أتخيل ما أقول، حتى حكى الحكاية، لبعضهم، بقية الستة، وهناك مسألة أخرى، وهى أننا سمعنا أثناء وضع النعش على الأرض فى الجامع للصلاة طقطقة عظام غير عادية، وأنا أقول ذلك الآن راجياً أن يصدقنى أولئك الذين لا يعتقدون فى مثل هذه الأمور؛ لأننى كنت مثلهم لا أظن أن حكايات من هذا النوع، لها وجود فى الواقع، وقد استغرق التفكير فى، ذلك الحادث، وقتاً كبيراً منى، قبل الوصول إلى رأى محدد فيه، وأستطيع تفسير هذه الواقعة ومسائل أخرى عديدة، وفقاً لمعطيات

التاريخ المصرى القديم، فإلهة العدل ماعت، تقوم بوضع قلب المتوفى فى ميزان، وتزنه، حتى يتقرر، فإذا كان القلب ثقيلا، لكثرة ما يحمله من خطايا وذنوب، ذهب إلى النار، وإذا كان خفيفاً نقياً، كانت الجنة من نصيب صاحبه، ومن هنا يمكن تصور أن النعش أخذ فى الطيران، ربما لحظة اكتشاف حقيقة قلب صاحبه، واتخاذ القرار الإلهى بشأن ذهابه إلى الجنة، وكل المقدمات تؤدى إلى هذه النتيجة، فالست عطية، كانت مشهورة بالكرم، مجبولة على فعل الخير وأياديها البيضاء، على جميع أهل الحى، أكثر من أن تعد أو تحصى، وقد كانت حلوة اللسان، طيبة السلوك والكلام؛ مما يجعل كفّتها فى الآخرة ترجح فى اتجاه دخول الجنة، وربما كانت لها تجليات وكرامات مستورة فى الدنيا، كما يقول المتصوفة.

لقد شغلنى موضوع الست عطية كثيراً كما قلت، وبالبحث فى ملابسات القصص والحوادث كافة، توصلت إلى نتيجة بالغة الأهمية، وهى أن الست عطية، كانت تنتمى إلى سلالة أخناتون العظيم دون أن تدرى، وكانت تحمل روح التعاليم الأخناتونية العريقة فى اللاشعور فبالبحث، اكتشفت، أنها كانت تنتمى إلى المنطقة نفسها التى نمت وترعرعت فيها الأخناتونية، وهى المنطقة التى انبعثت منها كل فكرة، تدعو إلى التفانى فى حب الخالق الواحد، أصل الوجود، لقد حاولت تتبع مسار التعاليم الأخناتونية تاريخياً، ووصل الخيوط التى انقطعت عبر ذلك المسار، والتى يمكن أن تدلنا على ما وصلت إليه هذه التعاليم من حال، فليس من المقبول عقلاً ومنطقاً، أن تسقط هذه التعاليم الراقية فى ذاك الزمان القديم، فجأة، لمجرد أسباب سياسية مستحدثة، إننى لمستطيع القول، إن الأخناتونية، ظلت تمارس تأثيرها

إلى وقتنا هذا، بعد أن تسربت فى مسارب عديدة، ولعل أبرز تجليات هذا التأثير، هو ما يثار الآن عن موضوع الست عطية، ففكرة التصوف، هى فكرة أخناتونية الأصل، تتلخص فى الانقطاع عن العالم والتعبد والتهدج؛ حتى يتحد المحبوب بمن يحب. وهنا أحب أن ألفت النظر إلى ما ورد فى كتابات مؤرخى العصر الوسيط عن الأخناتونية، فالملك سوريد، بلغة هؤلاء المؤرخين، والذى هو أخناتون، كان يعبر النيل تاركاً عاصمته هو وبناته الثلاث، عبر نفق سرى فى الماء، متجهاً إلى الضفة الأخرى من النهر، حيث الصحراء الشاسعة الممتدة، والشمس الذهبية الآسرة، لممارسة عملية الانقطاع التى أشرت إليها، وهو الأسلوب نفسه، الذى اتبعه بعد ذلك الأنبا باخوم مؤسس الديرانية فى مصر والعالم بأسره، ثم هناك أيضا المتصوف المصرى الشهير النفَّرى، الذى اتّبع الأسلوب نفسه، وأنا أظن أنه القديس أبا نفر الراهب الديرانى أيضا، وخصوصاً أن شخصية النفرى، يكتنفها الكثير من الغموض، وكذلك منشأه، وكيفية حياته، وإن كانت مسألة انقطاعه للعبادة فى الصحراء، مقطوعاً بصحتها تماماً، والملاحظ أن المتصوفة الإسلاميين جاء معظمهم من مصر العليا، بل إن بعضهم كان ملماً باللغة المصرية القديمة، فذو النون المصرى، وهو أسوانى المنشأ، يُروى عنه وفقاً لكتابات مؤرخى العصر الوسيط، أنه كان يقرأ ما كتب على البرابى المنتشرة بضفاف النيل، والمقصود بذلك الآثار الفرعونية العديدة الموجودة فى الصعيد، ثم إن هناك تشابهاً كبيراً بين مقولات النفَّرى، ومقولات أخناتون، وربما كان ذلك موضوع بحث طويل، لكنى أوردت كل هذا الكلام فى محاولة للوصول إلى جانب من الحقيقة فى موضوع الست عطية، فأنا لا

أؤيد ما حدث، على طريقة العامة، كما أننى لا أرفضه رفضا قاطعاً تحت دعوى العلم والمادية، وأنا أطالب أن يسارع الجميع بعملية الحفر، ولا داعى لعرقلة الأمور، خصوصاً بعد الذى شاهده ابنها والتربى، فهذه الحكاية مؤشر خطير على العلاقة التى ذكرتها بين الأخناتونية والست عطية، وأعتقد أن الأوان قد آن؛ لكى نتعامل مع كل ما هو غيبى على نحو علمى مدروس، ولنفسح المجال قليلا؛ لتتحدث حقائق التاريخ، وأخيراً أحب أن أقول لأولئك الذين يخشون على مقام الست عطية، إن عمليات الحفر والتنقيب، ربما قطعت الشك باليقين، وزادت مقام الست عطية قدراً ورفعة، بل عادت على الجميع بالنفع والخير.

رفض عـواد التـربي ـ كـمـا ذكـرت الصـبـاح من قـبل الإدلاء بـأية مـعلومـات للمـجلة، وهو التـربى المنوط بـرعـاية مـقـام الست عطيـة وخدمته، كما أن حوش القـرافة، الذى يوجد به المقام، ضمن منطقة نفـوذه، لكن الصباح استطاعت الحصـول على مـعلومـات تتعلق بعـواد التـربى، ربما تلقى هذه المعلومات بعض الضـوء على شـخصيـة عـواد ونشاطه فى المنطقة.

يقول م. ع. قارئ قرآن على القبور بالقـرافة: «عـواد هو المستفيد الأول من الذى حـدث الآن؛ لأنه الوحـيـد الذى يمكن أن يعـرف، مـتى، ولماذا، وكـيف نبش القـبـر؟. ورأيى أن القـصـة كلهـا من تأليـفـه، أمـا الخبـر الذى أحب أن أوصله للحكومـة والمسئولين، فـهو أن عـواد يبـيع الجـثث لطلبـة الطب، وهذا أمـر لا يمكن السكوت عليـه، وأنا عندى مـعلومـات كاملة عن الموضـوع، وتفـاصـيل الأسـعـار، وكلام كـثيـر آخـر سوف يفيد الحكومة جداً».

س. ف. تربى بالقـرافة: «عـواد أصله حـرامى وتاب، جـاء إلى هذه المنطقـة من زمن بعيـد؛ لأن الحكومة كـانت تسـعى فى طلبـه ثم رسى المقـام به فى القـرافـة وعـمل فى التـرب، وهو عـارف التـرب، طـوية

طوبة، وحجر حجر، ولو كان فيها كنز لكان سرقه من زمان واغتنى وفارق التراب، وعيشتها الغم، ورأيى أنه ليس صاحب مصلحة فى الحكاية كلها من أولها إلى آخرها، وبالنسبة إلى مقام الست عطية فهو جديد، ولا أحد يعرفه جيداً، يعنى المورد منه محدود، ثم إنه لو كان سرق أى شىء من القبر، يعنى الذهب أو خلافه، كان لابد أن يردم القبر مرة ثانية حتى لا ينكشف أمره، وهو نفسه، ليلة الحادث، كان متحيراً جداً، مضطرباً، وقد جاءنى إلى البيت، وحكى لى الحكاية، وطبعاً هو رفض الكلام عن أى شىء؛ لأن هذه الأمور حساسة من نواحٍ كثيرة ولا يصح الأخذ والعطاء فيها».

الأثرى على فهيم

سأتحدث، على رغم اقتناعى، بعدم جدوى هذا الحديث، فأنا أشك أن كلامى سينشر بالأصل؛ فهو أولاً وأخيراً، كلام غير صالح للنشر فى مجلة كمجلة الصباح، وربما غير صالح للنشر فى أية مطبوعة أخرى تصدر وتوزع على الملأ - خلال هذه الفترة - فكل ما يقال عن حرية الصحافة وحرية التعبير أكذوبة كبرى لم أصدقها، ولن أصدقها ما حييت، لكنى على أية حال سأعتبر أنى أحادث نفسى كما جرت العادة، الفرق أنى سأحادثها هنا بصوت عال بعض الشىء، وربما كان ذلك محاولة بسيطة، للإفلات من الجنون، الذى أشعر أنه يقترب منى بسرعة مخيفة؛ فأنا لم أعد قادراً على احتمال المزيد من الكذب والزيف، الذى بات يشمل كل شىء، ويغلف كل شىء فى حياتنا من أخمص القدم، حتى قمة الرأس.

لقد سوّيت معاشى من الآثار، على رغم وجود سنوات طويلة مازالت، تسمح لى بالاستمرار فى العمل، من الناحية القانونية، وحرصت على الانسحاب الهادئ؛ عندما شعرت أن الأمور قد فاقت كل حد، فلم يعد بمقدورى الاحتمال، أو القيام بأى دور معاكس، لما يحدث من تخريب متعمد ومقصود، والمسألة تخطت حدود الإهمال

والجهل واللامبالاة، بتراثنا الأثرى العظيم، بل أصبحت تمس ما هو أبعد من ذلك وأخطر، على ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، ووعى الأجيال المقبلة بذلك. وقبل أن أتناول موضوع مقام الست عطية، أحب الحديث عن حقيقة عامة أشعر بها، وهى أن بلدنا بلد منكوب على مرّ العصور، هو أشبه بالمرأة الجميلة التى جنى عليها جمالها؛ بسبب مطامع الآخرين فيها، فلقد كانت خصائص هذا البلد، نقمة على أهله طوال التاريخ، ما الذى جنيناه من بناء الأهرام، غير الموت والشقاء؟، أى مجد نلناه من وراء تلك الصروح الحجرية الضخمة، التى بنيناها بالدم والدموع؟، ثم ما الذى حصلنا عليه بعد حفر قناة السويس؟، كم قناة من الدم، امتلأت بعرق الآلاف من أبناء هذا الوطن، حتى تعبر فيها سفن الإنجليز والفرنسيين. ثم الأمريكان بعد ذلك!؟. فما من مأثرة لدينا، إلا وهى نقمة علينا، حتى النيل هو لعنة أبدية صُبت علينا، إنها دراما.. بالأحرى تراجيديا تاريخية، كُتِبَ على أبطالها - من أبناء هذا البلد - تجرُّع المأساة إلى الأبد.

أقول ذلك للولوج من خلاله، فى موضوع مقام الست عطية، فمن المعروف أن منطقة المقام، هى من أغنى المناطق الأثرية فى البلاد، والأثريون والمؤرخون يدركون تماما، مدى أهمية ومكانة هذه المنطقة من الناحية الأثرية، كما يعرفون سلفاً، أهمية النتائج التى يمكن أن تتمخض عنها الحفائر هنا، ولن أذيع سراً، إذا ما قلت، إن النتائج سوف تفوق أهميتها، أهمية الأهرامات الثلاثة مجتمعة، ومنطقة معبد الكرنك، ووادى الملوك، وكنز الملك توت عنخ آمون أيضا. فالنتائج ستكون دليلاً قاطعاً على ما أحرزته الحضارة المصرية القديمة من تقدم مبهر ورقى لا نظير له.

الجديد، هو أن الكشف سوف يكون ذا طابع تكنولوجى بالأساس، وعلى رغم ذلك، فإن أهميته الرئيسة تكمن فى كونه يلقى الضوء الساطع على شخصية المصريين القدماء؛ مما سيقدم مادة جديدة تماما لعلماء السوسيولوجى، وكذلك متخصصى الأنثربولوجى.. ولا أغالى، إذا ما قلت إن هذا الكشف، ربما فاق من حيث الأهمية، اكتشاف القنبلة الذرية، أو عملية الصعود إلى الفضاء.

إن ما دفعنى إلى الكلام، لا يتعلق بما أوردته آنفا، لكنى أريد الحديث عن عملية الكشف ذاتها، كيف؟. ولماذا؟. ومن الذى سيقوم بها؟. فبدون إجابة محددة دقيقة، عن هذه الأسئلة، ربما نقع فى مصيبة جديدة، كارثة قومية أخرى، تضاف إلى سلسلة الكوارث التى منينا بها طوال تاريخنا القومى، فأنا أرجو وأتمنى ألا نقوم بهذا الكشف الآن، على رغم كل ما قلته عن أهميته، أعنى لا نقوم به ونحن على هذه الحال المتدهورة التى نعيشها، نأكل لقمة الخبز بالدين، ولا نحسب لغدنا قبل يومنا، ونعيش شريعة الغاب؛ حيث يأكل الكبير الصغير، والقوى الضعيف، باختصار فإن هذا الكشف سوف يكون كارثة، مادام التشوه الغريب مازال يعمل فى ملامحنا، ولننظر ماذا نلبس؟، كيف نأكل؟، أين نسكن؟، كيف نحب ونتزوج وننجب؟. إننا محاصرون تماماً بكل عوامل التشوّه التى تُفرض علينا فرضاً، ونستجيب لها راضخين، يوما بعد آخر، دون أن نقاوم؛ لأن العدو يأتينا هذه المرة، بألف وجه ومن ألف باب وشباك. لماذا نرتدى الألياف الصناعية فى هذا الجو الخانق، ونحن نزرع القطن والكتان؟، ولماذا نعيش فى هذه المبانى الكئيبة الشبيهة بصناديق الصابون، أو الأحذية، وأمامنا الصحراء الفسيحة؟. لن أعدّد العشرات من

تفاصيل التشوّه، التى تسيطر على كل لحظة من لحظات حياتنا، لكنى أقول، إن الكشف عن أى شىء فى مقام الست عطية سوف يكون مصيبة ونحن على هذه الحال، فعملية بهذه الخطورة والأهمية، لا يمكن أن تتم إلا بجهود جبارة وطاقات مادية وبشرية غير عادية، فهو يقع علي مساحة واسعة جداً من الأرض، تستدعى إزالة القرافة الكبرى، بكاملها ومناطق مجاورة لها، لا تقل عنها قبحاً وكآبة.

إن التلمظ على مقدرات هذا البلد، سوف يزداد على نحو لا يمكن تخيله، إذا جرى الحفر الآن، وخصوصاً أن ذلك سيستدعى تدخل أطراف أجنبية فى عملية البحث والكشف - ولا أبالغ إذا ما قلت - ربما تنشب بسببه حلقة جديدة، من حلقات الحروب الاستعمارية الكلاسيكية المعروفة منذ مطلع القرن الماضى.

وبمنتهى الثقة والصدق، أقول للجميع، إن الكشف عمّا وراء مقام عطية، يستدعى طاقات روحية خلاقة، طاقات كل أبناء هذا البلد بالأساس، إن ذلك يعنى حقاً تغيير كل ماهو قائم وتنظيم الناس وحشدهم بدقة متناهية، حول هدف عظيم يشعرون من خلاله بالانتماء الحقيقى لهذا البلد.

أخيراً، أريد أن ألفت النظر، إلى أن وجود مقام الست عطية فى هذا المكان، ليس من قبيل المصادفة، فأنا لا أومن بقانون الصدفة كثيراً، وليحاول الجميع البحث عن حقيقة الأمر، فى هذا الاتجاه.

إلى من يهمه الأمر

على رغم تكتّم الجهات المختصة، والصحافة، على موضوع مقام الست عطية، لملابسات عديدة لم تُعرف على وجه الدقّة، وعلى رغم عدول مجلة الصباح عن قرارها بإجراء تحقيق واسع حول ذلك الموضوع، إلا أن السيف سبق العزل، كما يقول المثل الشهير، فلا أمر يُخفى إلا يشاع وينتشر فموضوع مقام الست عطية، أصبح حديث الناس فى الداخل، حتى أن بعض منتهزى الفرص من مؤلفى الأغانى الهابطة، التى تروج خلال هذه الأيام، قام بكتابة أغنية من ذلك النوع تقول كلماتها: « ياعطية وخبرينى، عن أحوال الجميع»، ويمكن الاستماع إلى هذه الأغنية بسهولة: إذا ما استقل المرء أية سيارة أجرة، تتنقل بين القاهرة والأقاليم.

أما مجموعة الكتاب والصحفيين، المتعيّشين من الكتابة فى صحف ومجلات البترودولار، فقد كان موضوع مقام الست عطية، بمثابة ثروة هبطت عليهم من السماء، خصوصاً بسبب حالة القحط التى أصابتهم، والناتجة عن غياب حوادث مثيرة، داخل البلاد يكتبون عنها، ومن ثم، فقد راحوا يتناولون موضوع الست عطية بالطول وبالعرض، وكان أطرفهم صحفى، يكتب حسب الطلب، متخصص فى

الكتابة لصحف ومجلات أنظمةٍ عربيةٍ متنافرة الاتجاهات السياسية، كتب مرة محاولاً إثبات، أن محاولة إثارة موضوع مقام الست عطية، خلال هذه الآونة، يستهدف بالأساس، غض الأبصار عن حرب الخليج، ومن ناحية أخرى، كتب فى مجلة ثانية يقول، إن ذلك الموضوع محك عملى، يجب أن تحتشد فى ضوئه قوى الصمود والتصدى فى المنطقة.

أما فى الخارج، فقد قدم مراسل جريدة إنجليزية، مهتمة بنشر أخبار البلدان المتخلفة، تقريراً مفصلاً عن موضوع الست عطية، حض فيه حكومته على نحو غير مباشر، بأن تسارع، وتضع يدها على الموضوع، قبل أن تسبقها حكومات بلدان غربية أخرى، ولا تملك بعد ذلك إلا عضّ أصابع الندم، من ناحية أخرى، فقد نشرت مجلة غربية فضحائية شهيرة، صوراً فاضحة، لمندوب منظمة ثقافية دولية يعمل فى القاهرة، وهو فى أوضاع شاذة مع تربى مقام الست عطية، واكتفت بالكتابة تحت الصور « بدون تعليق».

ويقال إن هذا المندوب، رفع فوراً قضية على المجلة، مطالباً بتعويض قدره، عدة ملايين من الدولارات.

لكن ما يجب ذكره على نحو أساسى، هو أن كل ما أوردناه وقدمناه، لم يكن لنا أن نعرفه، لولا المحررة عزة يوسف، والتى كانت قد قامت بجمع المادة الأساسية المتعلقة بالتحقيق الصحفى الذى لم ينشر، وخلال ذلك عقد قرانها فجأة على الأثرى على فهيم، ثم إنها قدمت استقالتها من المجلة بشكل نهائى، وبعد ذلك بفترة قصيرة، غادر على فهيم الحياة، بعد أن دهمته سيارة مجهولة، وهو فى طريق عودته إلى منزله ليلاً، وقد قيل وقتها، إنه كان يشكو إلى المقربين من

أصدقائه من إحساسه الدائم بأنه مراقب من قبل أشخاص مجهولين وإنه يستشعر بأنه سوف يُقتل.

قبل ذلك بفترة أيضا، كانت شقّة العروسين، قد تعرضت لحادث غريب؛ حيث داهم مجهولون الشقة، وأتلفوا محتوياتها، بعد أن نقّبوا فيها، واكتفوا بسرقة بعض الأوراق الخاصة بالزوجين، وبعض الكتب، ولما أبلغ على فهيم الشرطة، أسفر البحث والتحرّى عن لا شىء، وقيّد الحادث ضد مجهول.

ويبدو أن هذين الحادثين الغريبين، قد جعلا عزة يوسف تضع النقاط فوق الحروف، بالنسبة إلى مجموعة من الحقائق، كانت تعرفها هى وزوجها، ولسبب ما، أحجما عن إذاعة هذه الحقائق، أو ربما مُنِعاَ على نحو من الأنحاء من إذاعتها، لذلك قررت أمراً غريباً، قبل اختفائها من منزلها على نحو غامض، وفقا لما قالته الصحف بعد ذلك.

فالحقيقة هى أن كل ما سجلناه على الصفحات السابقة، لم يكن إلا ما وجدناه صباح أحد الأيام، تحت باب شقتنا فى مظروف متوسط الحجم، يحتوى على ما كتبته عزة يوسف، دون زيادة أو نقصان، تحت عنوان «إلى من يهمه الأمر»، ومذيّلاً بإمضائها دون تاريخ، ثم أسفل الصفحة «عزة يوسف قد تموت، لكن الحقيقة تبقى».

المظروف متوسط الحجم الذى عثرنا عليه، هو نفسه، المظروف الذى عثر عليه عدد آخر من الناس أسفل أبواب منازلهم، وكان يحتوى على المادة نفسها، ومعنوناً فى جميع الأحوال: «إلى من يهمه الأمر».

قصـــص

إحدى وثلاثون شجرة جميلة خضراء

قبل أن أحكى الحكاية، سأقول أولاً، لماذا قررت كتابتها، بل تسجيلها بدقة، كما حدثت لى، وعشتها، وشعرت بها لحظة فلحظة، حتي أتوا بى إلى هذا المكان الرهيب، المنعزل عن العالم، والذى بتّ موقنة تماماً أن لا أمل فى الفكاك منه، أو مغادرته إلا إلى عالم الموتى. لذلك قلت لنفسى، اكتبى يابنت، اكتبى يا كريمة فهمى حكايتك بالتفصيل، وخبئيها فى مكان أمين، وليكن داخل حاشية السرير بعد أن تفتقيها قليلاً عند أحد جوانبها، فربما عثر إنسان يوماً على الأوراق التى كَتَبتها، ورثى لحالك، بعد أن يدرك كم كنتِ مسكينة، حين وضعوك ظلماً وجوراً فى هذا المكان، لمجرد أنك آثرت الصمت، الصمت الأبدى، يوم قررت قطع لسانك الصغير، تلك القطعة اللحمية البسيطة التى كانت تنطق دوماً بالكلمات والأفكار.

لن أحكى عن هذا المكان الجهنمى الذى أعيش فيه الآن، لن أصف شعورى تجاه الحوائط الرمادية القذرة، التى تجعلنى أظل ساهرة، أبحلق فى السقف طوال الليالى، خوفاً من أن تقترب منى إلى الحد الذى تسقط فيه على جسدى، وتطبق على أنفاسى، فأنا أظل أراقبها، وهى تقترب شيئاً فشيئاً، وتتسلل ناحيتى بخبث، حتى

إذا أصبحت على بعد قليل منى، عندئذ، أصرخ بكل ما أملك من قوة، فتبتعد عنى، وتعود إلى موضعها الأصلى من جديد، لن أتحدث عن ذلك، ولا عن السيدة البدينة ذات الشعيرات البشعة المتناثرة أسفل ذقنها المتكور كبيضة الأفعى الصغيرة، وهى تتقدم نحوى، وتدس فى إليتى حقنتها البغيضة، التى ـ على الرغم من كل الألم والكراهية ـ تجعلنى أضحك، وأقهقه حتى أشعرها بالغيظ، وبانتصارى عليها، ولن أحكى عن الأكل القذر المسموم، الذى يقدمونه لى كل يوم، دون أن يكون لى حق الاعتراض عليه، لقد بكيت مرة بمرارة وحرقة، عندما شاهدت عصفوراً يتسلل من النافذة، ويأكل منه بعض الفتات، بل جريت نحوه لأبعده، لكنه كان قد حمل فتيتة صغيرة بين منقاريه قبل أن يطير، فتيتة صغيرة مسمومة مما آكله، جعلتنى أبكى بحسرة طيلة النهار، وأنا أتخيل أى مصير بائس سوف يلاقيه ذلك العصفور المسكين.

لن أحكى عن كل ذلك، وأشياء أخرى كثيرة شاهدتها فى هذا المكان، لأن التفكير فى هذه الأمور يشعرنى كما لو كنتُ قد رُبطت إلى قنبلة هائلة على وشك الانفجار، بالأحرى على وشك تفجيرى أنا، وبعثرة عقلى وجسدى إلى أشلاء صغيرة لا نهاية لها، لذلك سأكتفى بالكتابة، عما حدث لى قبل إجبارى على الحياة فى هذا المكان، قبل ذلك بسنوات، يوم بدأت أشعر بأن هناك أشياء بدأت تتغير من حولى، بل بدأت تتغير داخل نفسى أيضاً، فمنذ أن تخرجت من الجامعة، وعينت موظفة فى شركة المياه، كانت ثمة قطرات قلقلة من الطوفان قد بدأت تلوح فى الأفق لتلامس الناس والأشياء، بل حتى الحيوانات والنباتات.

الطوفان الذى جاء، ورأيته يكتسح كل شىء، كل شىء جميل فى مدينتى الجميلة، حتى أنى فى ذلك اليوم الذى أحضرونى فيه إلى هذا المكان الرهيب الذى أعيش فيه، كنت أبتسم بإشفاق، وأنظر إلى النباتات العالية المتناثرة هنا وهناك، حيث كانت العربة تعبر الشوارع فى سرعة مجنونة، كنت أبتسم، وأقول: وداعاً... وداعاً يا مدينتى الجميلة، لقد جرفك الطوفان من جديد، لقد لاحظت علامات الطوفان فى البداية على الشارع الذى كنت أقطعه، يومياً سيراً على الأقدام، فى طريقى، من منزلى إلى عملى فى شركة المياه، ذلك الشارع الذى كنت أحبه كثيراً، بل أفخر به، وأشعر باعتزاز حقيقى؛ لأنى من سكان المدينة التى يقع فيها، وحتى هذه اللحظة، التى أجلس للكتابة فيها، تشرق فى نفسى البهجة ويضطرب قلبى بالحنين، وأنا أتخيل صور الألوان الضاحكة المرحة لمظلات محلاته ودكاكينه. ألوان برتقالية فاقعة وزرقاء لامعة، وتلك المظلة الرائعة، التى طالما تأملتها، بينما البائع يناولنى قرطاس الفول السودانى، مظلة دكان «نجمة الحرية» الذى يبيع صاحبه الحمّص واللب بأنواعه كافة، وأنواعاً أخرى من التسالى. وعندما بدأ زحف الطوفان كان هذا الشارع الذى ألفته منذ طفولتى ووطأته قدماى مراراً، قد أخذ فى التغير، وبدأ يفقد معالمه شيئاً فشيئاً، الواجهات اللامعة النظيفة، التى يمكن أن يطالع المرء فيها وجهه عند الصباح لفرط تلألئها، أخذ زجاجها فى الانطفاء والذبول والرصيف الممهد المندّى بالمياه فى ساعات الصيف الحارة باتت به بؤر صغيرة تتجمع فيها المياه الوسخة، وكنتُ ألاحظ أن هذه البؤر تتسع يوماً بعد آخر حتى تكوّن ما يشبه البرك الراكدة المتناثرة على أرضية الرصيف، ولما كنت أقطع الطريق يومياً، ذهابا

وإياباً، إلى عملى مشياً، فغالباً ما كنت أسلّى نفسى بتأمل شجيرات الشارع الجميلة، وأقوم بعدها، وكنت أعرف أن بعد شجرة الكافور، تأتى شجرة الجازورينا، ثم شجرة الفيكس الهندى، وقبل الوصول إلى باب شركة المياه بحوالى عشرين متراً، كانت هناك شجرة جميلة لم أعرف اسمها أبداً، تلك الشجرة ممتدة الفروع التى كانت تسقط أوراقها كلها تقريباً عند حلول الربيع، وتزهو بكم هائل من الزهور البنفسجية الكبيرة، فتبدو بديعة، فريدة المنظر بين الأشجار كنت أحفظ عن ظهر قلب عدد شجيرات الطريق.. إحدى وثلاثون شجرة خضراء مورقة تزين الشارع، وتبهج قلبى كما رأيتها، وفى أحد الأيام عددتها، فوجدتها ثلاثين، فدهشت، وحسبتنى قد أخطأت العد لانشغالى بأمر آخر وأنا سائرة، لكنى عندما عددتها مرة أخرى أثناء عودتى من شركة المياه عند الظهر اكتشفت اختفاء إحدى شجرات الفيكس الهندى التسعة من مكانها، كانت مقتلعة من جذورها، وملقاة على الرصيف مع أنقاض البناية القديمة التى أخذوا فى هدمها، وقد بدت لى كجثة طائر برىء اغتيل غدراً دونما ذنب ارتكبه، ووجدتنى أبكى بحرقة، حيث لم يكن شىء آخر غير البكاء يمكن أن يجدى مع تلك الغصَّة الرهيبة التى أمسكت بحلقى، وشعرت معها أننى على وشك الاختناق، منذ تلك اللحظة بدأت أشعر بالتغيرات التى أخذت تعترينى، كانت هناك آلام بسيطة فى أحشائى، وصداع يلازم رأسى، لم أعر الأمر أهمية فى البداية، لكن الحال ظل على ما هو عليه أياماً وأسابيع، وبعد فترة من ذلك تحول الصداع إلى آلام رهيبة برأسى، آلام مجنونة تصاحب كل شهيق أستنشقه، وزفير أطرده.

عندئذ ذهبت إلى الأطبـــاء الذين أخـــذوا يعطوننى المسكّنات والمهدّئات دون جدوى، وأخيراً شخصوا حالتى على أنها التهاب مزمن فى المصـران الغليظ بسـبب التوتر العـصبى. ولما أصبح فى الشـارع القديم الممتد ثلاث شجـرات، ثلاث شجرات فقط، من إحدى وثلاثين شجرة، لا أعـرف مـا الذى جرى لى على وجه التحديد، بل لم أعـرف مـا الذى دهى هذه المدينة، وجرى للناس فيها، كل مـا أذكره عن تلك الفتـرة هو أن وزنى قد زاد زيادة كبيـرة حتى صـرت أُحْسَبُ ضـمن البدينات، كما أن روحى فقدت كل قدرتها على المرح. لم أعد راغبة فى الذهاب إلى السينمـا، أو محـادثة صـديقـاتى فى أى الموضـوعـات التى كنت أحب الكلام فيـهـا، وحتى الزواج قـررت ألا أفكر فـيـه على الإطلاق على الرغم من تقدم عـمـرى، وهنا أشيـر إلى حقيقـة وهى أننى لم أكن دميمة أبداً. وحتى بعد زيادة وزنى ـ على النحو المذكور ـ ظل البعض يعتبرنى على جانب من الجمال، ربما بسبب نقاء بشـرتى، واتساع عينّى، ونعومة شعرى. والحقيقة أننى خلال هذه الفترة كنت أفكر دوماً فى مسألة هي: كيف أتزوج يوماً، وأُنجب أطفالاً يعيشون فى هذه المدينة؟ أية تعاسة ستلحق بهم عندما يتطلعون حولهم فيها، فـلا يجـدون إلا غـابة واسـعـة مـزروعـة بالأسـمنت والألوان الرمـاديّة والبنيّة، ولا أخفى أيضاً أننى خفت على أحفادى أكثر، عندما فكرت فى حالهم إذا ما خرجوا إلى الدنيا، وعاشوا فى هذه المدينة، دون أن يروا زهرة أو يعـرفـوا مـعنى هذه الكلمـة، ثم إن الذين تقـدمـوا للزواج منى، لم يروقونى على الإطلاق، ربما بسبب أننى كنت أرغب فى شـاب يختلف تماماً عن كل الرجـال الذين صادفتهم فى الحياة. فتى يحب هذه المدينة مثلى، ولا يمل من أن يحصى عدد أشجارها فى أمسيات

الصيف الحارة عندما تصفو السماء، ويشرق القمر متألقاً على الكون من عليائه. كنت أسرح ببصرى بعيداً، وأحلم بفتاى المجهول يرافقنى، ونسير متعانقى الأيدى فى طرقات المدينة، نثرثر، ونحن نلتهم حبات الفول السودانى.

لكنى لا أنكر أننى خرجت يوماً مع زميل لى فى العمل، كان بيننا ودّ بسيط، دفعنا إلى ذلك، ويومها، يوم خرجت معه، طلب منى أن نجلس فى كازينو لنشرب الكازوزة أو أى شراب صاقع، فرفضت، وقلت له: أفضّل الجلوس مباشرة على حافة النهر، ومراقبة مياهه، وهى تجرى بلا هدف لتصل البحر، وقلت له: إننى لا أحب الكازوزة، ولما رأيت عينيه الداكنتين تلتمعان أسفل حاجبيه المعقوفين، بفعل أشعة الغروب المذهّبة، وكان يبدو وسيماً ورقيقاً جداً، فى هذه اللحظة خفق قلبى، وملت إليه وقبلّته فى شفتيه، عند ذلك انتفض غاضباً، ونهرنى بشدة، ثم قال: كيف تجرؤين على فعل ذلك فى مكان عام، ولم يكن بالمكان وقتها غير بائع ترمس عجوز، فغضبت أيضاً، وقمنا لنفترق فى الميدان الواسع، ومنذ تلك اللحظة، لم أكلمه أبداً.

غير أن ما لفت أنظارهم إليّ، وأدّى إلى أن يضعونى هنا فى هذا المكان المقيت إلى نفسى، وجعلنى أتيقّن تماماً من حقيقة أننى فى ناحية، وهم فى ناحية أخرى كانت بدايته يوم تأخرت فى نومى بسبب حلم جميل رأيت فيه أشجار شارعى الحميم قد عادت كلها إلى أماكنها، بل أورقت وأزهرت جميعاً، ثم أثمرت ثماراً جذابة خرافية الشكل ذات ألوان رائعة لم أر مثلها فى حياتى أبداً من قبل. ولما أفقت من حلمى على سخونة أشعة الشمس الساقطة على جبهتى اكتشفت أننى سأتأخر كثيراً عن العمل، فقمت وارتديت ملابسى على

عـجل، دون أن أتذوق شـيـئـاً من الطعـام، أو أشـرب كـعـادتى كـوبـاً من الشـاى، ورحت أسـرع الخطى فى الشـارع الذى صـرت آلـف رؤيته قذراً مـزدحـمـاً بـالسـيـارات والناس، لكنى اكـتشـفت فـجـأة أثناء جـريى أننى نسيت ارتداء حمّالة صـدرى، فشـعـرت بقلق وخـجل، وقلت لنفسـي: مـا أحـمقنى، وهل تُنسى مثل هذه الأشـياء؟ وفكرت فى العـودة إلى البيت مـرة أخـرى لارتداء الحـمّالة، لكن مـعنى ذلك كـان حـرمـانى من التـوقيـع فى شـركـة المياه بسـبب تجاوزى وقت التـأخـيـر، لذلك واصلت سـيـرى، قـائلة: ربمـا لن يلحظ ذلك أحـد، وبدا لـى فى عـدم ذهابى، يومـهـا، تأكـيـد كل مـا يقـال عنى فى الشـركـة من أنى غـريبـة الأطوار ولا أهتم بعـملى، ثم تـوقـفـت قليـلاً أمـام مـحل يضع مـرآة كـبيـرة خلف الأحـذية التى يضـعـهـا بواجهته، وتأملت نفسـى، فـوجـدت صـدرى يبـدو متـهـدلاً قليـلاً، فقلت لروحي: ومـا يضـير فى ذلك؟، وواصلت سـيرى من جـديد، وأنا أفكـر فى حـمّـالات الصـدور، والذى أخـتـرعـهـا، ومـا مـعناها؟ أو قيمتها؟ ولما فكّرت، وفكّرت، وجدت أنهـا قطعة مـضحكة من القمـاش، مـضـحكة حـقـاً، والنسـاء حـمـقـاوات لإصـرارهن على إدخـال صـدورهن فـيـهـا كل يوم، ثم مـا المخـجل فى صـدر المرأة؟ ولما ذهبت إلى الـعـمل، وبعد حـوالى سـاعـة من قيـامى ببعض الحسـابات المعتـادة فى الدفـاتر، دخلت على رئيسى فى مكتبـه ليوقع على بعض الأوراق، فـلاحظت أنه عندمـا مدّ يده ليـأخـذها منـى اعـتراه ارتبـاك مفـاجئ، كـمـا أن طرفى أذنيـه أخـذا فى الاحـتـقـان ثم بدأ العـرق يتصبب منـه، ولما كـان هذا فى نهـايات الخريـف والوقت صـبـاحـاً، خـفـت أن يكون الرجل مـريضـاً، فقلت له: هل بك شـىء يا أسـتـاذ عـزيز؟ هل أحـضـر لك كـوبـاً من الماء. لكنه ردّ على كلمـاتى بجـفـاء لم أعـهـده منه، وأنا التى تعـودت أن يعـاملنى

بلطف ورقة، لأنى حسّاسة كما يقول دوماً، ثم طلب منى أن أعود لمكتبى وأتركه، وسيطلبنى بعد قليل. لكنه بعد قليل نادى على زميلتى نادية، التى تتقدمنى فى العمر، وفى الوظيفة، وبمجرد أن خَرَجَتْ من مكتبه، توجّهت لى، ووجهها ممتقع، وطلبت منى وهى تتفحصنى أن أتبعها، لأنها تود محادثتى بممر دورة المياه. ولما ذهبنا، أخذت تتأملنى وتوبخنى، وتقول لي: كيف تجرؤين على الحضور إلى العمل بدون حمّالة صدر، وأخبرتنى أن هذا السلوك استفز الأستاذ عزيز جداً، وأنه اعتبره سابقة خطيرة فى الشركة لا يستطيع السكوت عنها، وأنه سيوقع جزاء عليّ، لأن فى تصرفى هذا خروجاً على الآداب، فجنّ جنونى، وكدت ألطمها على وجهها المكتسى بمساحيق مختلفة الألوان.

لكنى جريت إلى غرفة الأستاذ عزيز، وقلت له وأنا أنتفض من الغضب والغيظ، إننى نسيت بالفعل ارتداء حمّالة صدرى، لأنى حرصت على الحضور لشركة المياه فى الوقت المحدد عند الصباح، كما أخبرته بأننى قررت الحضور من الآن فصاعداً إلى الشركة بدون حمالة صدر، لأنى فكرت فى حمالات الصدور كثيراً، ووجدت أن لا ضرورة لهذه القطعة من القماش، مثلما لا توجد أية فائدة أو معنى لرباط العنق الذى يرتديه، كان هناك عدد كبير من زملائى وزميلاتى فى الشركة، جاؤوا إلى غرفة الأستاذ عزيز، وتجمعوا، وسمعت لأول مرة فى هذا اليوم بعض الهمسات منهم: إنها غير طبيعية! إنها مجنونة!!.

قبل الواقعة المذكورة، كان ثمّة حكايات أخرى صغيرة، لكنى لم أصطدم خلالها برئيس أو زميل لى، فأنا أتحاشى الجميع ولا أتحدث معهم، إلا فى أضيق الحدود، وفيما يتعلق بعملى فقط، وكنت أدّخر

أفكارى وآرائى فى الشـوارع والناس، لوقت من ألطف أوقـات يومى، وهى دقائق ما قبل النوم، حيث كنت أشعر دوماً خلالها بصفاء ذهنى، ونقاء روحى، مما يجعلنى أفكر فى حياتى، وحياة الناس فى هذه المدينة. فى مـرة من المرات فكرت: لماذا كل هذه القذارة فى شركة المياه؟ ولماذا لون المكاتب بهـا كـالح رمـادى دومـاً؟ ثم لماذا تتكدس عشرات الملفّات والأوراق، فى الأركـان؛ لتكون مـرتعـاً للحشـرات والفئـران أثناء الليل؟ فخطرت لى فكرة، توقّعت أن تكون مفـاجـأة سعيدة للجميع، فقد كنت أوفّر بعض الجنيهات من مرتبى، اشتريت بها مكتباً جميلاً، وطلبت من البائع أن يطليه بلون أحمر زاهٍ، على أن يرسله إلى عنوانى فى شركة المياه، وذهبت فى يوم استلام المكتب إلى عملى باكراً، وأخذت أنظّف حجرة الحسابات، التى أجلس فيها مع ستة من زملائى، فكنستها ومسحتها ونظّفت زجاج نوافذها، ووضعت على مكتب كل موظف صحبة زهور لطيفة فى كوب ماء، وعند الظهر جاء البائع إلى الشركة ليسلّمنى، مكتبى الأحمر، فرفض موظف مكتب الأمن، المختص بالدخول والخروج، إدخال الرجل ومعه مكتبى الأحمر، لكنه بعدما أراه البائع فاتورة الدفع واسمى المدون عليها، اتصل برئيس الشركة الذى استدعانى على الفور، وسألنى عن الحكاية، ولما أعلمته، وقلت له: لماذا نصرّ على استخدام مكاتب رمادية؟! ماذا لو جلس موظف على مكتب أحمر، وآخر على مكتب أخضر، وثالث على أصفر، وهكذا...؟! ألا يجعل ذلك البهجة تسرى فى نفوس الجميع؟! بدأ ينظر إلىَّ مستغرباً، ثم قلت له: إننى اشتريت المكتب على حسابى الخاص، وإننى عندما يتوفر لى مبلغ جديد من المال، سأشترى بعض الأثاث البسيط لحجرة المحاسبة.

نظر إليّ الرجل، الذى مازلت أكرهه - حتى هذه اللحظة - باستخفاف، وقال لى: عودى إلى مكتبك، ثم أمر موظف مكتب الأمن أن لا يسمح بدخول المكتب، فغلى الدم فى عروقى، وأخذت أصيح وأقول: هذا ليس عدلاً! لماذا أنتم تفكرون على هذا النحو؟! ما الذى يضير فى مكتب أحمر اللون؟! ومن فرط انفعالى أصبت بإغماءة خفيفة، نقلونى بعدها إلى المنزل.

إننى حتى الآن أحكى عن أشياء بسيطة، أحكى عن بعض الأشياء؛ ولا أحكيها كلها، لكننى سأقول على وجه التحديد، كيف جاؤوا بى ظلماً وعدواناً إلى هذا المكان: فى اليوم الذى قرروا فيه إجراء انتخابات عامة فى المدينة، ذهبت لأنتخب، لأنى كمواطنة رشيدة، لابد أن أكون حريصة على أداء حقى الدستورى، غير أن المشكلة التى أرَّقتنى، وأنا فى طريقى للانتخاب، كانت تتلخص فى أنى لا أعرف بدقة من هو المرشح الجديد بصوتى الانتخابى، وبقيت أقلِّب الأمر على كل الوجوه، والحقيقة أننى كنت مهتمة بعض الشىء بالأمور العامة، فكنت أحضر بعض الندوات، التى تتعلق بذلك، وتعقد هنا، وهناك، كما سرت مرة فى مظاهرة وأنا صغيرة فى المدرسة، وهتفت لثورة الجزائر وجميلة بوحريد، كما كنت أواظب يومياً على قراءة الجريدة، لكن ذلك كله لم يهدنى إلى المرشح الجديد بصوتى، وبينما أنا أسير فى أحد الشوارع المؤدية إلى المدرسة الابتدائية، حيث تقع اللجنة الانتخابية، لاحظت ابن عرس يخرج رأسه، متلصصاً من باب أحد الدكاكين المغلقة، ثم يفر مسرعاً ليعبر الطريق فى اتجاه المدرسة، فتوقفت عن السير قليلاً، واستعدت صورته التى رأيتها منذ لحظات، فى ذهنى، وقلت: ما معنى هذا؟ وما المقصود بذلك؟ ابن

عرس فى وضح النهار؟! ولم أتمالك نفسى وأنا أفكر فى ذلك الأمر، فلم تكن هذه المرة الأولى التى أشاهد فيها هذا الحيوان الصغير، ذا الوجه الكئيب، والجسد الأملس الطرى، يجول فى شوارع المدينة. لقد رأيته مرات كثيرة، قبل ذلك، يعبر الشوارع، ويدخل إلى كل مكان ببساطة، وبدأ الصداع الشديد يداهمنى، والآلام المزمنة التى تعودتها، تعزف نغماتها المجنونة فى بطنى، الذى أصبح منتفخاً كامرأة حامل، فجلست على حافة الرصيف شبه منهارة، أبكى بمرارة، وأنشج، فجاء بعض الناس وأخذوا فى تهدئتى، وحوقلت امرأة عجوز وهى تربت على كتفى وأنا أرد على تساولاتهم عن سبب ذلك، وأقول لا شىء.. لا شىء، ثم قمت وكفكفت دموعى، وأخذت أتابع مسيرى حتى وصلت إلى المدرسة الابتدائية.

ماذا جرى بعد ذلك؟ لا أعرف على وجه التحديد. كان هناك أناس كثيرون، بعضهم أعطانى أوراقاً، قرأتها دون أن أفهم شيئاً، وكان البعض الآخر يعلّق صوراً وأشكالاً على صدره، كالنخلة والكلب والجمل والساعة وغير ذلك، ويبدو أن أحدهم لاحظ أننى أقرأ الأوراق باهتمام، فاقترب منى، وأخذ يجاذبنى أطراف الحديث، ثم أشار عليَّ أن أنتخب المرشح الذى ينتمى إلى حزبه، فقلت له متسائلة: هل يسعى حزبك لزرع الأشجار فى المدينة بدلاً من الأسمنت؟ وهل كوّن جيشاً مسلحاً للقضاء، بجدّ، على ابن عرس؟ وهل يمتلك دواءً يمكنه أن يعيد الفرح إلى نفسي؟ وأخذت دائرة النقاش تتسع حيث تجمّع أناس آخرون، وبعد أخذ وعطاء، وكلام كثير، قلت لهم: أنتم جميعاً لا جدوى فيما تفعلونه، طالما أن أجسادكم بهذا الترهل، فالعقل السليم فى الجسم السليم، ثم إن معظم الوزراء

عندنا قبيحو المنظر، وأقفيتهم سمينة على نحو يجعل المرء يتشكك فى قدرتهم على فعل أى شىء نافع، ثم تساءلت بصوت عال: أين النساء؟!. لا أرى نساءً حولي!. لماذا لم تبحثوا عن أسباب هروب العصافير من مدينتنا، وانتشار الذباب والبعوض بها؟!. فأخذوا يقهقهون، وذهب بعضهم بعيداً، غير أن رجلاً طلب منى بلهجة آمرة أن أذهب معه إلى داخل المبنى قليلاً، فرفضت وسألته عن السبب، فكشَّر فى وجهى، فلم أُعِرْهُ اهتماماً، فلما سألنى عن بطاقتَىّ، الشخصية والانتخابية، وأبرزتهما له بحسن نيّة، أخذهما منى، ورفض إعطاءهما لى، فشتمته، ورحت أضربه، وهنا فوجئت ببعض الأشخاص يهجمون علىّ، فصرخت طالبة الشرطة والمسؤولين، ولم أشعر بعد ذلك إلا وأنا فى البيت.

فى اليوم التالى لذلك اليوم، جاؤوا بى إلى هنا، حيث أنا الآن، كيف جرى ذلك؟ أقول كنتُ قد أفقتُ فى بداية الليل، لأجد نفسى على سريرى، أشعر بإرهاق وصداع شديدين، ووجدت أمىّ تنظر إلىَّ نظرات مشفقة غاضبة، وتقول لى: أَوَصَلَ بكِ الأمر إلى هذا الحدَّ؟ أَوَصَلَ بكِ إلى تضييع مستقبل أخيك؟ ألا تعرفين أنه ضابط، وأن مسلكك هذا قد يجعله مضطراً إلى ترك عمله؟ ألا تكفّين عن الرعونة، وتلزمين الصمت؟ أبداً، والله إنّ لسانك يستحق القطع، ثم أخذت تبكى، وخرجت من الغرفة.

بقيتُ بعد ذلك فترة من الوقت أحملق فى سقف الحجرة، وأفكر فيما قالته، رحت أستعيده حرفاً حرفاً، كنت أشعر أننى مخطئة حقاً، بل مجرمة، كيف أفعل ذلك دون حسبان ما يترتب عليه بالنسبة إلى وضع أخى الوظيفى الحساس؟!، وكيف أسعى دون أن أشعر لإيذائه،

وفجأة برزت فى ذهنى صورتى، وأنا صغيرة، وأمى تهددنى بقطع لسانى بالمقص، لأنى أفشيت لأبى ـ بمجرد عودته من العمل ـ سراً، هو أن أخى كسر آنية الزهور الصينيّة فى حجرة الصالون، وهو يلعب الكرة. لقد أمسكت أمى بالمقص، بعد أن خرج أبى إلى المقهى عند الغروب، وحشرتنى فى ركن الحجرة، ثم فَتَحَتْهُ على مصراعيه، وأخذت تقترب منى مهدِّدَة، هى تطالبنى أن أُخرج لسانى عن آخره لتقصَّهُ، حتى لا يفشى سراً بعد ذلك، كنت أصرخ من الخوف والرعب، وأتوسل إليها ألَا تفعل، ثم أعلنتُ ندمى واعتذارى عما بدر منى، بينما وقف أخى الصغير يتفرج على منظرى، ويضحك، كنت أتذكر ذلك، وأنا مازلت أحملق فى سقف الحجرة، وفكرت: ما الذى سوف يحدث لو قُطِعَ لسانى بالفعل؟ ألا تنتهى كل مشاكلى حينئذ؟!. ألن أصمت إلى الأبد؟!. وسأكتفى بمراقبة ما يدور حولى دون إبداء الرأى ولا الكلام. أليس هذا أهون من الانتحار؟. لقد فكّرت مراراً قبل ذلك فى الانتحار، وقد حاولت قطع شريان يدى بموس حلاقة فى إحدى المرات، لكنى تراجعت فى اللحظة الأخيرة، لأنى خفت من الموت أولاً، كما خفت ثانياً أن أموت كافرة لا أُقبل فى الجنة أبداً، وخفت أكثر وقتها من الألم، فعدلت عن موقفى. لكن اللسان موضوع مختلف، إن قَطَعَهُ لا يعنى أننى سأموت، لكنى سأفقد القدرة على النطق والكلام فقط، كنتُ فى غاية التوتر والانفعال، عند ذلك الحدّ من التفكير، فقمت من السرير، ووقفت أمام المرآة، ثم تأملت منظر وجهى الغريب، الذى أصبَحَتْ تلازمه هالات زرقاء داكنة حول العينين، تأملت لون بشرتى الأصفر، ثم أخرجت لسانى، حتى بانت لهاة حلقى، فوجدته طويلاً عريضاً ذا لون أحمر قان، فقلت: لا تخشَ

شيئاً يالسانى العزيز، قطعة صغيرة من اللحم. ثم بعض من الدم وآلام لابد منها، ثم تنتهى آلامك كلها إلى الأبد، وتذكرت عملية ختانى عندما كنت فى التاسعة، فقلت: لا بأس، ثم مددت يدى إلى المقص الموضوع على التسريحة أسفل المرآة، وفتحته عن آخره، كما فعلت أمى يوماً فى الماضى، ورحت أدخل لسانى بين مصراعيه.

بحقّ الشيطان من أين جاءت أمى فى هذه اللحظة لتخطف منى المقص؟ لا أعرف على وجه التحديد، لقد وجدتها أمامى فجأة تنقضُّ علىّ وتخطفه من يدى، ثم تصرخ مولولة ليتجمع الجيران والناس من الشارع، وبعد قليل نقلونى إلى هذا المكان الذى لا أعرف، من وقتها، كم من الوقت مرّ على إقامتى به، ربما سنوات عديدة، لكن أمى، التى كانت تزورنى كثيراً، وتكلّمنى دون أن أرد عليها، لم تعد تأتى أبداً، أما أخى الذى أصبح يزورنى على فترات متباعدة فلا يقول شيئاً، ولقد حكيت حكايتى لجميع من حولى من الأطباء والممرضات فكانوا يبتسمون ويربتون على ظهرى دون جدوى، حاولت إفهامهم أننى فكرت فى قطع لسانى حتى أكفّ عن الكلام، وأتجنب المشاكل، لكن هذا لم يجد شيئاً.

وها أنا أكتب هذا الكلام الآن، فربما قرأه إنسان وعرف حقيقة أمرى وحقيقة كونى مظلومة، ووُضِعْتُ فى هذا المكان ظلماً وعدواناً. إنّى أكتب لشعورى المتزايد بأننى أصبحت على وشك الموت، فقد ذوى جسدى، وابيضّ شعرى، ولم تعد قدماى قادرتين على حملى لكنى أتمنى أن أخرج من هذا المكان، ولو لساعة واحدة لأرى مدينتى والشارع الحبيب إلى قلبى الذى طالما سرت فيه، وياليتنى أرى فيه حينئذٍ إحدى وثلاثين شجرة جميلة خضراء.

لم تبق إلا سبعة أيام بلياليها، ليهلّ هلال الشهر الجديد ويعود، عين أمه وكبدها، اسم النبى حارسه وصاينه، من غربته، التى طالت ودخلت على سنوات خمس، فى «بلاد برّه»، لذلك فأم المحروس، حليمة، تتمنى اللحظة التى تشوفه فيها عيناها، ويضمه حضنها، ويبقى الودّ ودّها لو تطير من فرحتها، وتنشر خبر رجوعه فى كل ناحية، ولابد، ساعتها، أنها ستزغرد، الزغرودة الطالعة من القلب، ليعرف كل من فى الحارة أنه، بسلامته، رجع، فلا تمر ليلة إلا ويصير الجميع عندها، للسلام والتهنئة، وشرب الحاجة الصاقعة، التى نوت حليمة أن تكون تمراً هندياً، وكركديه ستبلّهما، بعد صلاة الظهر، يوم رجوعه، إن أمهلها الكريم، وكان لها عمر، بإذن واحد أحد.

حليمة لا تعلن الخبر، لكن هيهات

هذا الموضوع، عرفه الجيران، وشمّوه، قبل أن تعلنه حليمة صراحة، وتقوله لكل من هبّ ودبّ فى الحارة، فجارتها الساكنة قبالتها، والتى تفهمها وهى طائرة، تولت نشر النبأ، لما رأت حليمة

تقلب الدنيا فى حجرتها، فجأة، « وهات ياكنس ومسح وتنظيف فى الشباك والباب». حليمة نفسها، لم تعرف أنهم عرفوا، إلا عندما التقتها الجارة إياها، فى السوق، صباح اليوم التالى، ساعة خروجها لشراء البساط، وقالت إنها خمّنت أن المحروس لابدّ راجع من غربته فى القريب، فانبسطت حليمة، وابتسمت، حتى بان ضبها، مع علمها أن هذه «الوليّة» حسودة، وتحبُّ اللتّ والعجن فى الكلام، ونقل الأخبار والحكايات، وأفادتها عن طيب خاطر، بأن مكتوباً وصل إلى ابن خالة المحروس عرف منه أن ابنها راجع، يوم عشرة فى الشهر الأفرنجى، وأنها حسبتها بحسابها، فطلعت الحسبة توافق طلعة الشهر العربى الذى سيهل.

حليمة، فضّلت عدم التطويل، والأخذ والرد فى الكلام، لأنها خافت أن يسرقها الوقت، وتقفل الدكاكين، قبلما تتمكن من شراء البساط الجديد، الذى عزمت على شرائه، بدلاً من القديم الذى داب واهترأ، من طول الاستعمال والدوس عليه، مع أنه، فى الحقيقة، كان عزيزاً عليها جداً، لأنه تبقّى من أيام زفافها لأبى المحروس، ذكرى، وأثراً، وعبرة على أن الزمان لا يدوم لأحد.

ثم إن البساط كان جميلاً وذوقه حلو، يعجبها ـ أكثر شىء فيه ـ الحيوان المُزَيّن لأطرافه «داير ما يدور»: لما تقع عين ابن آدم، يظن أنه غزال شارد فى أرض واسعة، وكثيراً ما شرد معه فكر حليمة، خصوصاً فى السنين الأخيرة، لما تغرَّب المحروس بعيداً عنها، فكانت تجلس على البساط، وحيدة، قافلة بابها عليها، بعدما تغرب الشمس تأكل لقمة بجبن، تبتلعها مع الشاى، قبلما تمدد جسمها وتنام وتتأمل الحيوان الجميل المرسوم بأطرافه، وربما تهللت أساريرها بالرضى،

وهى تستـــرجع صـورة المحـروس، عندمـا خطا خطواته الأولى بين الحيـوانين المتقـابلين، وقتـهـا، كانت تجلس على طرف السرير ترتب الغسـيل الناشف الذى لمّتـه لتـوها من فـوق الحبـال بالمنور وفـجـأة، وَجَدَتْهُ وهو الحابى على يديه وقـدميـه، يهب واقفاً، ويحـاول الخطو، باتجاهها. خطوة جعلتها تدب على صدرها فرحاًوأصبحت الدنيا لا تسعها من السعادة، فقامت ونادت على الجارة، وابنتها، التى جاءت تمسك معها بيديه، وأمسكت بنتها الصبيّة بإبريق المياه والسكين، ورحن، ثلاثتهن، يغنين ويزغـردن له، وهن يسـرن مـعـه فى مـوكب صغير، سارت فيه الصبيّة أمامهن تشق الأرض بسكّينها، وترشها بالماء، ليعبر عليها المحروس، وتسنده أمه من ناحية والجارة من الناحيـة الثانية، وفى هذه اللحظات الجميلة المستعادة فى مخيّلة حليمة، كانت تخال أنها تسمع فعلاً لَغْوَ ضناها، مختلطاً بنشيدها له:

تاتا خطّى العتبة... تاتا واحدة... واحدة.

هذه واحدة من الذكريات، التى ما أكثرها ـ ياحليمة ـ تمّر عليك كلما جلست على البساط، وحيدة، تنتظرين عودة الغائب عن العين، الدائم فى القلب، والذى لولا قسوة الأيام وتقلب الزمان، لما تركته يذهب إلى بلاد الله الواسعة، يبحث عن رزقه فيها، فهو الرائحة الطيبة الوحيدة المتبقية من المرحوم أبيه على ظهر الدنيا، والثمرة الناضرة التى حملتها بطنك، بعد أن واقَعَكِ الحبيب الراحل، فى ليلة من الليالى، بين قدمى الحيوان الجميل، حيث تمددت أمسية صيف حارة، تفترشين البساط هرباً من سخونة الفراش، التى بقيت من ضربات شمس أغسطس اللاهبة فى السرير طيلة النهار.

لكن حليمة، على رغم كل شىء، مضطرة إلى شراء بساط جديد،

وهذا ما قَرَّرَتْهُ بعدما نفضت جدران الحجرة من التراب، وكنست أرضيتها وأدارت الحاجات فيها، فحطت صندوق جهازها، تحت الشباك، بدلاً من السرير، وشالت غطاء فرش الكنبة، وغيرته بآخر نظيف، ثم إنها لَمَّعت صورة المرحوم، المعلقة على الحائط، وقبّلتها قبل أن تعيدها إلى مطرحها، وذرفت دمعتين بهذه المناسبة، لأنها تمنّت لو كان المرحوم مازال يعيش فى الدنيا، ويشوف اليوم الذى يعود فيه ابنه، من بلاد الغربة، فى أحسن حال، بعد أن انفكّت كربته. لكنها على رغم بذلها جهداً كبيراً، فاق كثيراً كل جهد تبذله التنظيف والترتيب بمناسبة الأعياد، بما فى ذلك عيد شمّ النسيم ذاته، إلا أنها لم تكن مبسوطة من النتيجة النهائية لشغلها، لأن البساط ظل مقلِّلاً من قيمة المنظر فى المكان، فهو « منحول ومنغول» وصارت خرومه أكثر من أن تُعَدّ، بل إن الحيوان الجميل، المزيَّن لأطرافه، بدا غير واضح الشكل، نظراً إلى شدة التآكل، وبات شكله أقرب إلى هيئة الكلب، منه إلى هيئة الغزال، كما أن لونه اجربّ كثيراً، فالأبيض فيه لم يعد أبيض، والنبى الغامق فسخ وتغيّر. وحليمة تتمنى، لما يعود، ضناها، يلاقى كل شىء فى بيته حلواً وجميلاً، ولاتقع عينه على أى شىء لا يسرّ النظر، والجدع ربما يأتى بصاحب من أصحابه، الذين التقاهم فى الغربة، سيدخل البيت لأول مرة، فلا يصح أن يقول بعدها إن بيت ابنها أى كلام، والبساط فيه قديم ومنغول، وإن أمّه لا تعرف أن تفرش على البلاط بساطاً مثل الخلق. كما أنها تعرف أن المحروس سيفكر ولابد فى أن يشبك عروساً، لأن سنّه أزف، ووقته حان، ليصبح أباً، لبنين وبنات، خصوصاً أن أمثاله من الجدعان صار عندهم العيل والاثنان منذ

سنين فاتت، لكن ضيق اليد هو الذى منعه من ذلك، أمّا الأسباب الثانوية التى جعلت حليمة تلف وتدور فى السوق، الآن، بحثاً عن بساط جديد، يمكن تلخيصها جميعاً فى وجع المفاصل، الماسك فى عظمها، لا يتركها أبداً، وهى لذلك تخاف الدّوس حافية، على بلاط الحجرة الرطب، إذا ما ظل بدون بساط.

الدوخات السبع فى سوق التجار

مرت ساعتان وحليمة فى السوق، تلفّ وتدور، وتجّر رجليها جراً، من التعب، لكن دون أن تجد غايتها فى شراء بساط صنوف قباطى، مرسوم عليه طير، أو حيوان جميل، كالقديم الذى عندها. والغريب أنها دخلت دكاناً واثنين، وثلاثة، وسألت أكثر من واحد عن البساط، لكن عينها لم تر إلا البسط، التى لا يهون على حليمة أن تدفع فيها «قرش صاغ مصدى». والأغرب أن التجار كانوا يردّون عليها الرد «الواقف، الناشف»، وكأنها تطلب العزيز الغالى، أو لبن العصفور العجيب.

على أيّة حال، فضلت حليمة تسعى، ومن يدور، لابد أن يلاقى، وهى ماشية، واحدة واحدة، تبص فى كل ناحية، على دكان للبسط، يكون، هنا أو هنا، ولم تترك عطفة، ولا حارة، فى السوق، إلا وفتّشت فيها، لكن لمّا سمعت أذان العصر، نوت أن تدخل أول دكان يقابلها بعد ذلك، تشوف فيه، ثم تعود لبيتها، لأنها تعبت جداً، وتأخرت، وتخاف أن تليّل الدنيا عليها، وهى وحدها فى الطريق، ولما رأت السجاد والبسط معلقة على باب دكان من بعيد، سارت إليه، وتكررت لصاحبه الديباجة، التى قالتها فى كل الدكاكين التى دخلتها قبل ذلك:

«العوافى ياحاج: والنبى، بِّدى بساط يطلع مترين فى ثلاثة، لكن يكون صوف، من النوع الأصلى، ويكون حلو على ذوقك، وانت أدرى».

التاجر، فرّج حليمة أشكالاً وألواناً، « شىء بسط، وشىء سجاد، وشىء منقوش، وشىء مخطط، وشىء صوف خالص، وشىء داخله كتان» لكن، حليمة، لم تقع عينها على واحد برسم لطير أو حيوان، ثم إنها أحست، أن الصوف، فى الصنف، معدوم تقريباً، لما كانت تمسك الخامة بيدها وتجسها. لذلك قالت للتاجر، من جديد، إنها تريد بساطاً من وبر الجمل، أو صوف الغنم، أصلياً، مثل القديم، الذى « نحل ونخل»، وقالت له أيضاً إنها لولا أن المحروس ابنها راجع من السفر، والبلاط يشع رطوبة، لما كانت فكرت فى شراء بساط جديد.

التاجر، لم يرد على حليمة، لكنه رد على الهاتف الذى رن جرسه فجأة، ثم تكلم كلاماً كثيراً، عن البضاعة والسوق، مع الذى كان يكلمه، بينما رصَّ فحم النرجيلة التى جاء بها صبى المقهى، ولما حط السماعة مطرحها طلب منها أن تنتظر قليلاً حتى يعود صبيّه من مشواره ويريها شيئاً آخر، ولما شعرت حليمة أن الأخذ والعطاء ممكن مع التاجر، حكت له عن دوختها ولفها طوال النهار على الدكاكين، وأبدت له استغرابها؛ لأن التجار لم يعودوا يردون على الزبائن بريق حلو، ثم حكت له إنها لما كانت عروسة، وبدأت تجهز جهازها، كان التجار يقدِّمون لها ولأمها المشاريب والعصير بلا مقابل، وقالت له إن الدنيا قلّ خيرها، والعالم تغيّر.

التاجر، انبسط، وكركرت ضحكته مع كركرة النَفَس، الذى سحبه من النرجيلة، فشرق وسعل، وأمر صبيّه. الذى كان قد عاد هذه

الأثناء، بأن يُنزل لهـا صنفـاً جـديداً، من مكانه على الرف العـالى بالدكان. وهـو الصنف الذى لم يكن إلا حـصيـراً ملوناً بألوان كثيـرة، وامتدحـه التـاجـر قائلاً: إنه صنف ممتاز، متين ورخيص، ولاتمسك فيه الوساخة، لأنه نايلون، يمكن غسله وقت اللزوم.

حليمـة، تأملت الحـصيـر وتصعّبت وقالت للتاجـر إن الحصيـر البلدى أحسن، لأن النايلون لو وقع عليه عقب سيجارة لانتهى أمره، كمـا أن ألوانه «زاعقـة قوى»، ثم إنهـا لو ودت لكانت اشترت حصيـراً من طلعة النهار. لكنهـا تريد البسـاط إياه فهـو جـميل يتحـمل، ومـا أحلى الطيـر أو الحيـوان عندمـا يزين طرفـه ومـا أحلى النوم عليـه لو مـال الواحـد واستلقى عليـه سـاعـة العصـارى، وقـالت له أيضـاً إن البسـاط، الصوفى القديم، عمره أكبر من عمر المحروس ابنهـا، وقد تحمل الكثيـر، حيث كان لعب المحروس، وجـريه، ونومه، وأكله، عليه، حتى كبـر وصـار جـدعـاً، طول بعـرض، دخلتـه تفـرح القلب الحـزين. التاجر اغتاظ على بضاعته، وتضايق من كلامها، وقال لها يظهر إنها تعيش فى دنيا غيـر الدنيـا، وتبدو كمن يبحث عن بساط الريح، ثم سـألهـا أثناء الكلام عن عـمـرهـا، فـقـالت له: يمكن يكون خـمـسين أو ستين أو سبعين سنة لأنها بدون ورقة ميلاد، لكن أباها حضر هوجة سعد، وكان وقتها يصطاد ببندقيته عساكر الانجليز ويورد الرأس منهم للتلامذة الواحدة بشلن. التاجر، قال أيضا إنه وقتها لم يكن تاجراً لكنه كان عيلاً ينط فى الترام بعلب السجائر «الكوتاريللى» مع أبيه، وأضاف لها إنها وليّة على نياتها؛ لأن الدنيا تغيرت، عن الأول، تغيّراً كبيراً، والبساط، طلبها، يصعب ملاقاته، فى هذه الأيام، لأن ثمن الحيوان ارتفع، بما فى ذلك صوفه، مثلما ارتفع سعر كل شىء

آخر فى الدنيا إلا سعر بنى آدم، الآخذ فى النزول المستمر. ثم إن النوّال الذى يغزل مثل هذا البساط عزّ الآن، فى السوق، وإن وجد فهو يطلب الشىء الفلانى، والناس كلها جارية وراء المستورد، فى هذا الوقت، والنايلون، والموكيت، غطّيا على كل شىء. وقالت إن ابنها يعجبه البساط القباطى، بعدما شافت عينه أشكالاً وألواناً فى «بلاد برّه».

حليمة، انقبضت نفسها، وعرفت أن التاجر لم يفهم، ولم يعرف غرضها ومطلوبها، وشعرت وهى تجول بعينيها فى البضاعة، أن الدنيا تغيّرت كثيراً عن الأول، وأنها أصبحت «دقّة قديمة»، وتذكرت، وهى تهم بالمسير، المرأة التى خبطت فيها وهى ماشية فى زحام السوق، والتى كانت ترتدى الجلباب الطويل، وتلف رأسها بطرحة، بطريقة ذكّرتها بحريم الخديوى أيام زمان، والتى قالت لها: «ماتفتّحى ياولية يا فلاحة وتبصى قدامك».

قبضت حليمة دون أن تشعر على جلابيتها الفلاحى، «سلو»، بلد أبيها، والتى ظلت ترتديها، ولم تخلعها حتى عندما انتقلت مع أبى المحروس إلى البندر، منذ سنوات، فوجدتها حلوة، وأحلى من كل الجلاليب التى تلبسها النسوان فى السوق. لذلك فقد بصّت للتاجر، بصّة طويلة وتصعّبت، وقالت له: كتّر خيرك. وقامت واقفة لتترك الدكان، لكنها، وهى تهم بخطو العتبة، انقبضت روحها، وتطيّرت نفسها، لأنها لم تجد البساط، فتعوذت من الشيطان، ابن الحرام، الذى يلعب بالعقل، ويجعله يظن الظنون، ودعت ربها أن يجعل الأمر خيراً، ويعود المحروس بالسلامة، فما علاقة البساط الذى لم تجده، بعودة المحروس؟!. ثم انها مؤمنة وعاقلة، والبساط ممكن وجوده فى

أمـاكن ثانيـة فى البلد، غـيـر هذا السـوق، لأن البلد لا يمكن أن يخلو منه، وعلى أية حـال، فـهى سـتـعـود إلى البـيت الآن، فـالليل أوشك أن يدخل، والسكّة لا تخلو من أولاد الحرام.

وها هى أيام تعبـر وتمر، ويعـود المحـروس بالسـلامـة يا حليـمـة، ووقـتـهـا، يكون مـن الأحـسـن أن يخـرج هو وإياك، سـاعـة فـضـاء فى العصارى، لتحضرا البساط معاً.

ثم حـسـرت طرحـتـهـا عن شـعـرها قليـلاً، وتنسمّت نسـمـة طريّة ـ هبّت فجأة ـ وسارت.

كيد الرجال

ولما دق باب البيت، وكان القادم هو العريس المنتظر، شهقت فهيمة الخياطة من الفرح، ودقت على صدرها، ثم قالت لنفسها: يا سعدى ياوعدى، ياهنائى بعد طول صبرى ورجائى، وسارعت بتملى وجهها فى المرآة طويلاً، لتتأكد من وضع الأحمر على الشفتين، والكحل فى العينين، كما أنها سوّت شعرها والذى منه، وما هى إلا دقائق خمس، حتى كانت قد دخلت على العريس الجالس مع عمها فى حجرة الضيوف بأكواب الشراب، فشرباه وقالا لها: مبروك يافهيمة.

ولم تمض أسابيع قليلة إلا وكُتِبَ الكتاب، ودخل العريس على عروسه، فطارت فهيمة من الفرح، وكانت لا تصدق أنه فى علم، وتظن نفسها لحظات كثيرة أنها فى حلم، وظللت تحادث روحها وهى تمسح وتغسل، وتكنس وتطبخ، وتقول: سبحان الذى لا ينسى عباده المساكين، لقد فُرِجَتْ والله، وأنا التى كنت أظن أنها لا تفرج أبداً، لقد رزقنى الله بزوج، هو سيد الرجال، تحسدنى النسوان لطلعته البهية وعيشتى معه الرضيَّة، وأنا التى كنت أظنه لا يمكن أن ينظر إلى مثلى أبداً، بسبب شكلى وكسمى، وقصرى وسوادى، لكنها أرزاق مقسمَّة، وأقدار مكتوبة فليت الزمان يدوم لى بوصاله، فأكون له

العبدة الوفية، والزوجة الرضية، وسبحان الذى بدَّل الأحوال بعد دخوله عليّ، فها عظمى قد اكتسى باللحم، ووجهى قد استضاء واستدار، حتى انخفس فيه أنفى المستطال، وها الأنوثة قد ظهرت منى، بعد أن لبست الأحمر والأخضر، وصدق من قال: «الإنسان نصفه خلقة، ونصفه الآخر خرقة»، و «عندما يكتسى عود البوص، يصير كالعروس».

- ٢ -

غير أن دوام الحال من المحال، ولو دامت لغيرك، لما آلت إليك. فالتاجر الذى كان يوماً عريسها المنتظر، ثم أصبح زوجها المحبوب، أخذه القلق لما مّرت الأيام والشهور، واكتمل الحول ولم يعمر بطن فهيمة بنت أو ولد، وهو الذى أراد أن تكون له ذرية صالحة من امرأة مباركة، لم يمسها بشر من قبل، لذلك اختار فهيمة، على رغم معرفته أنها بين النساء لا تحسب جميلة، وفى سوقهن لا تساوى فتيلا، لكنه وهو الخبير العليم بأحوال الحريم، بعد أن جرّب السمراء والبيضاء والطويلة والقصيرة، والنحيلة والبدينة، وذاق منهن متع الحياة، عرف أن الشهوة شىء، والزواج شىء آخر، والأخير يحتاج الحيية المهذبة، المحتشمة والوقورة: لأنك ياولد لو تزوجت بالجميلة المغناجة، فربما تلعب معك بذيلها، وتحرق قلبك بفتنتها ودلالها، وأنت رجل تقضى نهارك بطوله فى السوق، ولا تعود إلى دارك إلا عند المساء، ثم إنك تعلم، منذ أن صُلت وجُلت فى دنيا النساء، عند دخولك ديوان الشباب، بسبب ملاحتك ويفاعتك، وعزك وغناك أن النساء جميعا فى الليالى سواء.

لكن فهيمة لم تتجب ياولد، ففيم الانتظار؟، ولم الهمُّ والاعتبار؟. إنك لسوف تفنى وتتلف من شرب الخمر كل ليلة كمداً وغماً، ووالله لو كان العيب عيبك لسكتّ ورضيت، ولاستمرت الحياة مع الولية على ما هى عليه، فهذا لن يكون إلا قدرك المكتوب، ومصيرك المحتوم، لكنك تعرف نفسك، وأنت الذى عاشرت من النساء العدد الكثير، ولولا معرفتك بالطبيب الذى يجهض الحامل، ببساطة ويسر كمن يشرب كوباً من الماء، لكان لك الآن بدلاً من العيل عشرة، لكن فهيمة خذلتك، وخيبت ظنك فيها، وأنت الذى حسبت أنها سوف تزهر عند أول رواء وتأتى لك بالبنت والولد، لكن سبحان الله الذى لابد أن له فى ذلك حكماً، فابن آدم يجرى جرى الوحوش، لكن غير رزقه يحوش.

ثم إنه اجتمع مع فهيمة فى لحظة صفاء، بعد أن تدبر أمره وأخبرها أنه عقد قرانه على فلاحة صبية، سوف يأتى بها لتعيش معهما فى البيت الواسع الذى يعيشان فيه، كما أن الحياة سوف تستمر بينهما كما كانت من قبل، لن يتبدل من أحوالهما شىء، سوى أن حجرة من حجرات البيت سوف تشغلها الزوجة الجديدة، وأن الأمر والنهى سوف يبقى كما هو لفهيمة، لأنه لا يجد مبرراً لطلاقها، ويرغب فى مواصلة وصالها، لكن الحذر، كل الحذر، أن تعاكس أو تشاكس البنت الصبيّة، فهو لا يريد وجع دماغ كل يوم والثانى، ولايريد أن يتفرج الناس على ثلاثتهم وهم يختلفون، ثم إنه مسح دموعها التى سالت على خديها كالأنهار، وقبّلها وداعبها، وما لبث أن أغلق شباك الحجرة وسحبها من يدها إلى السرير.

أما ما قاله التاجر لعروسه الجديدة، وهو يصطحبها معه من الريف للمدينة، ليبنى بها وتسكن بيته، فهو كلام رهيب، أخاف قلب الصبيّة، وهزّها، فهى لابد أن تكون مطيعة، مطواعة، لزوجته الأولى، تأتمر بأمرها، وتأخذ بمشورتها فى كل شىء، لاتخالفها الرأى، ولاتناظرها القول، وخصوصاً أمام الخلق والجيران، وقد أخبرها أيضاً إنه لن يخل عليها بشىء، وسوف يبدّل حالها ويعيّشتها فى هناء وحبور، ولن يحرمها من شىء طالما أخذت بنصيحته، ووضعت كلماته حلقة فى أذنيها، ثم إنه أشار لها بأن تبسط أصابعها بينما راح يخرج من جيبه خاتماً ذهبياً بفصّ أحمر كبير، ألبسه لها، فكادت الفلاحة أن تطير من الفرح، الذى ظل يسرى فى أعطافها طوال الليل، بعد أن أكلت البط المحمّر، والأرز المعمّر، فى حجرة زفافها إلى التاجر، الذى زاد شوقه أكثر وأكثر، تلك الليلة، إلى البنت والصبيّ، وكاد أن يجنّ جنونه حتى يسمع، ولو مرة فى حياته، نداء ياوالدى. لكن مرور الأيام، واقتراب نهاية العام على زواجه الجديد، جعله يتعجب أشد العجب من أحوال هذه الصبيّة، ذات البنية القوية، والصحة العفية، التى لا تشكو من علة أو مرض، وتأكل أكل الرجال، يشهد على ذلك تورّد خدّيها ولمعان عينيها، فهى لم تحمل ببنت أو ولد، ولم تَشْكُ من ألم أو وجع يمنعها عن ذلك. ففكر وقال لروحه: ربما أن هناك عملاً قد عُمل لى، وكيداً قد كيد لزوجتى. والحقيقة أنه شك أول ما شك فى فهيمة، لأنه كان يعلم مدى حبها له وتعلقها به، وغيرتها عليه، فسارع وفاتحها فى الأمر بعد أن أخذها باللطف واللين، فأقسمت أنها لم تذهب إلى شيخ يخاوى الجان، أو ساحر أُلعبان، على الرغم

من أنها فكرت فى ذلك، حين فاتحها فى أمر زواجه الجديد، لأنها تحبه وتتمنى أن يصبح لها وحدها، لكنها لما شافت البنت الفلاحة وخَبِرَتْها، وعرفت أنها مسكينة، يتيمة الأم، عانت من بطش زوجة الأب، عطفت عليها وعاملتها معاملة الخلّ الوفيّ، والصديق الصفيّ، وخصوصاً أن الفلاحة لم يصدر عنها إلا الود والاحترام، فقالت عندئذ لروحها: ولِمَ لا تأتى هذه الصبية بغلام جميل، نحبّه ثلاثتنا، ويملأ علينا البيت بضحكه وحبوره، وإذا كانت ضرّتى أمه، وزوجى أبوه فوالله لسوف أكون له أماً ثانية، أزرع حبى فى قلبه، بحنويّ وعطفى عليه، فما الأمومة البطن التى شالت، ولا الصدر الذى أرضع، لكنها العطف والأمان، والرحمة والحنان.

فلما سمع التاجر هذا الكلام من زوجه الأولى، استراح صدره المتعب، وهدأ باله من ناحيتها وأخذته الشفقة على فهيمة، فربت عليها، وطمأنها على مودّته لها، ثم شكرها على حسن تفكيرها وتدبيرها، وقام ليخرج إلى أشغاله فى السوق.

- ٤ -

غير أن شهوراً لم تمرّ وتمض، إلا وجاء الخبر إلى فهيمة بأن زوجها ينوى الزواج بثالثة، فطار صوابها بعد أن كذّبت الخبر فى البداية، وضربت كفاً بكف وهى تقول، لقد جنّ الرجل وفقد عقله، أيتزوج من جديد، وهو الذى تخطّى الخمسين؟! أيظن أن الجديدة سوف تمنحه العيل المولود؟، ألا يريد الاقتناع بأنه عاقر عقيم، لا رجاء منه فى أمر الخَلَف والإنجاب، ثمّ لما جاء الليل، باتت تفكر وتقلّب الأمر على كل وجه من الوجوه، فاشتعلت النار فى صدرها،

واشتمّت من حيث لا تدرى الخطر فى هذه الزيجة الجديدة، ثم إنّها فكرت أن البيت لن يتسع لامرأة ثالثة تشاركهم الحياة، وظلت على هذه الحال أياماً، منتظرة أن يفاتحها التاجر، كعادته فى الأمر، وهى تتقصى الأخبار من هنا وهناك، ولما لم يفعل، بل زاد من مودته وملاطفته لها، شعرت بخطر أكبر، فتغيّر صدرها من ناحيته وبدأت تنظر إلى الأمر بعين أخرى.

- ٥ -

قالت فهيمة لضرّتها التى لم تعد فلاحة بعد أن بدّلتها أحوال المدينة فلبست الضيّق والقصير، وخلعت الطرحة والمنديل: هبى أن زوجنا تزوج علينا بثالثة، فما يكون رأيك؟. ضحكت الشابة الغريرة بعد أن أخرجت مشبك الغسيل من بين شفتيها وثبتته على فستانها المنشور على الحبل، وقالت: وهل مازال به حيل لامرأة جديدة؟، لقد أصبح ينام كالفسيخة، ألا تسمعين شخيره كل ليلة، وترين كيف أصبحت خطواته ثقيلة حين يسير؟. ثم لماذا تنشغلين به كثيراً وتفكرين فى أمر لم يحدث؟ ألا نأكل ونشرب ونعيش مرتاحتى البال فى سعة ولين؟، فلم القلق إذن وماذا نريد من الدنيا أكثر من ذلك؟. غير أن فهيمة أرعبتها وألجمتها بنظرات عينيها، وأخبرتها بتفاصيل الخبر الذى تلقته، ثم شرحت لضرتها خطورة أن تشاركهم الحياة امرأة جديدة، والتاجر قد تقدمت به الأيام، فربما طلّقهما معاً أو طلّق إحداهما، وعند ذلك الحد انكمش قلب الفلاحة من الرعب، وخافت أن تصبح بلا مأوى فى حال طلاقها، فقالت لضرّتها: إذن وما العمل؟. فقالت فهيمة: إذا أنت أخلصت لى، وأخلصت لك،

وتعاهدنا على الصفاء والوفاء، وتكاتفنا على مواجهة الأمر، نجت سفينتنا، وأمِنَتْ حياتنا، وأنتِ مسكينة مقطوعة من شجرة، وأنا أوشك على ذلك أو أكاد، خصوصاً أن عمّى الوحيد الباقى لى من أهلى رجله والقبر، فلم لا نكون شقيقتين وإن لم نخرج من رحم واحد. لا غيرك لى، ولا غيرى لك؟، فلنتخلص من ذلك الرجل المأفون، والله معنا. ثم إن الباب دق، فانقطع الحديث لما كان القادم هو التاجر الذى نادى عليهما لتنزلا من السطوح حيث كانتا تنشران الغسيل.

- ٦ -

بعد أسبوع جلس التاجر كعادته بين زوجتيه عند العشاء، وأخذ فى أكل الأرانب التى أعدتاها له، لم تكن الفلاحة تحب الأرانب ولا تطيق منظرها لأنها تشبه القطط، فوق أنها تحيض، فأكلت الملوخية بالأرز فقط، أما فهيمة فقد امتنعت عن الطعام بعد أن تعللت بتقلب أوجاع مرارتها عليها، فأكل التاجر من الأرانب هنيئاً، ثم شرب الشاى بعد ذلك مريئاً، وفهيمة وضرّتها تتبادلان النظرات فى صمت، حتى دخل التاجر حجرة الضرّة، وانقلب على ظهره،ونام.

وما هى إلا سويعات على أفول النجم، وبزوغ الفجر، إلا وكان التاجر يتقلب فى فراشه، كالبهيمة، متلوياً من الألم، وحوله امرأتاه تبكيان وتنوحان وعند شروق الفجر كانت نظرات الرجل قد زاغت وشارفت نفسه على التلف، فلما رأت الفلاحة ذلك أخذت تصرخ وتقول: يا سبعى يا ضبعى، وفهيمة تبكى وتنتحب على الجانب الآخر من سريره، وكانتا قبل ذلك كلما همّتا بالذهاب لإحضار طبيب أو

طلب الإسعاف، يرفض التاجر بشدة وينهرهما ويمنعهما من ذلك، متعللاً بأنه سوف يتحسن بعد قليل، ولما صاح الديك صيحته الأولى: كوكو، كوكو، سقط رأس الرجل على المخدة وتمددت يداه بجانبه دون حراك، فدبّت فهيمة على صدرها وشهقت، بينما همت الفلاحة بالخروج من البيت لمناداة الجيران، وبينما هما كذلك، إذ بالتاجر يهب واقفاً سليماً معافى فى وسط الحجرة، فما كان من المرأتين إلا أن خرتا عند قدميه من الرعب والفزع.

-٧-

أفاقت المرأتان، لتجدا التاجر جالساً على الكنبة فى الصالة كعادته عند الصباح، يحتسى كوباً من الشاى أعده لنفسه، بينما يستمع إلى أخبار الحكومة من الراديو، فلما رآهما قادمتين إليه ابتسم بسخرية وضحك، ثم أمرهما بالوقوف بين يديه، وأخبرهما أنه عرف بكامل تفاصيل خطتهما لسمّه بعد أن أفشى سرهما العطّار الذى طلبتا منه السمّ، وأن الرجل أعطاهما ملحاً بدلاً من السم، ثم أخبرهما أنه تظاهر بالموت ليخيفهما، ويرى ما يجرى منهما عندئذ، وها هو قد تيقنّ من أنهما فاجرتان مجرمتان لا تستحقان إلا الرمى فى السجن، أو تقطيع أوصالهما، والرمى بها للكلاب فى الشارع.

فلما سمعت الضرتان هذا الكلام بكتا وولولتا وانحنتا على قدميه تطلبان المغفرة، كما باست فهيمة الأرض بين قدميه، وقالت إنها لم تفعل ذلك إلا من شدّة وجدها وهيامها به، وكذلك قالت ضرتها، ثم أضافت فهيمة، إنها خافت من وقوعه فى براثن النساء

وهو فى ذلك العمر، أما الفلاحة فتوسلت إليه أن يقتلها أو يرميها للكلاب، ولكن لا يطلقها أو يرسلها للسجن، وظلتا على ذلك الأمر نحو الساعة، والرجل يتلذذ بتعاستهما وبؤسهما، حتى شعر بوجع الدماغ من كثرة العويل والكلام، فقال لهما: أتظنان أنى مبلغ الحكومة؟ والله أبداً فأنا لا أريد أن يشمت فيّ أحد، كما أنى أخاف على سمعتى وتجارتى من القيل والقال، ثم هل تظنانى سأطلقكما!؟ والله أبداً.. فلن أترككما بعد الذى فعلتماه معى، بل سأجعلكما ككلبتين، أذلكما وأعذبكما كيفما أشاء.

وقام التاجر من موضعه واتخذ زينة الخروج، حتى سمعت الضرتان اللتان لبدتا فى ركن من البيت، ترتعشان من الخوف والرعب، صفقة الباب وهو يغلق. ثم لبثتا على هذا الحال دون طعام أو شراب، لا تتحركان من موضعهما، وهما تتعاتبان وتتبادلان الاتهامات، والندم يأخذ منهما كل مأخذ، والوقت يسرقهما دون أن تشعرا، حتى سمعتا صرير الباب يفتح فقامتا ودخلتا إلى الصالة التى كانت الساعة المعلقة على أحد جدرانها تشير إلى اقتراب منتصف الليل، وكان التاجر يقف وبجانبه امرأة حامل منتفخة البطن، تستند إلى ذراعه، فقال لهما: هذه زوجتى التى ستكون بمشيئة الله أم أولادى، وقد تزوجتها منذ فترة زواجا عرفياً فلما تيقّنت من حملها. عَقَدْتُ عليها. وكان يبدو منتشياً جدا فى حالة واضحة من السكر، فأضاف إنه لم يكن ينوى أن تعيش معهم فى ذلك البيت، لكنه قرر بعد الذى جرى منهما بالأمس أن يأتى بها لتعيش معهم ليكون لها الأمر والنهى، ثم إنه أشار إلى حجرة فهيمة وكانت أوسع حجرات البيت، والتفت إلى المرأة الحامل قائلاً: هذه حجرتك وكل ما

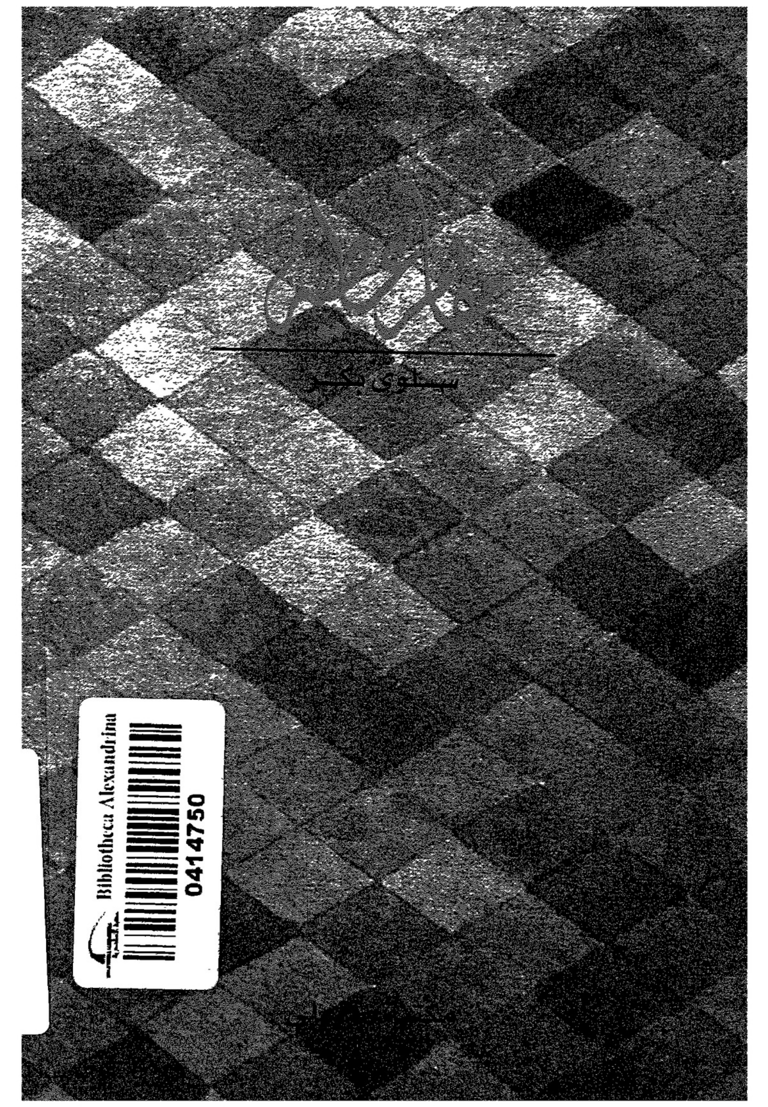
فى البيت لك وقد كتبت كل تجارتى وأملاكى باسمك، ثم استدار إلى الضرتَيْن وقال: لقد طلقتكما طلقة بائنة لا رجعة فيها، ثم إن أنفاسه تقطّعت وتهدّج صوته شيئاً فشيئاً، وسقط ميتاً فى التوّ واللحظة.

الفهرس

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) ١٩٨٦، القاهرة.
- مقام عطية (رواية وثلاث قصص قصيرة) ١٩٨٦، دار الفكر القاهرة.
- عن الروح التي سُرقت تدريجياً (قصص قصيرة) ط١، ١٩٨٩، مصرية للنشر، القاهرة ـ ط٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) ط١ ،١٩٩١، سينا للنشر، القاهرة ـ ط٢، ٢٠٠٠، دار سحر للنشر، تونس.
- عجين الفلاحة (قصص قصيرة) ١٩٩٢، سينا للنشر، القاهرة.
- وصف البلبل (رواية) ١٩٩٣، سينا للنشر، القاهرة.
- أرانب (رواية قصيرة وقصص) ط١، ١٩٩٤، سينا للنشر، القاهرة ـ ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- إيقاعات متعاكسة (قصص قصيرة) ط١، ١٩٩٦، دار النديم، القاهرة ـ ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ليل ونهار (رواية) ١٩٩٧، دار الهلال، القاهرة.
- نونا الشعنونة (قصص قصيرة) ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البشموري (رواية) «الجزء الأول» ط١، ١٩٩٨، دار الهلال، القاهرة.
- البشموري (رواية) «الجزء الثانى» ط١، ٢٠٠٠، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- البشموري (الجزأين معاً) ٢٠٠٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- حلم السنين (مسرحية) ٢٠٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شعور الأسلاف (قصص قصيرة)، ٢٠٠٣، مكتبة مدبولى، القاهرة.
- سواقى الوقت (رواية)، ٢٠٠٣، دار الهلال، القاهرة.

دار الصفوه للطباعة
٣٢١٤٥١٥ - ٠١٠/٥٦٥٩٤٨٤


سلوى بكر